عبير

٥٠٩

دار م. النحاس

509

HARLEQUIN

www.elromancia.com

مرمورية

رقصة الغجرية

فانيسا غرانت

رقصة الغجرية

فانيسا غرانت

انني أعدك بأن أزيح الستار عنك حتى لا يبقى ثمة شك تحت أي حجاب يخفي حقيقتك كإمرأة.»

أراد ريكاردو سوان أن يعرف كل شيء عن ماريا. ولكنها كانت قد حصنت نفسها طوال سنوات بحواجز تمنع أمثاله من الرجال من الوصول إليها. وكان كل حبها ومشاعرها محصورة في دورها عندما تمثل شخصية لاحيتانا الغجرية، أكثر راقصات ومغنيات المكسيك شعبية. ولم يكن ثمة طريقة تجعلها تستجيب لحب ريكاردو خصوصاً وقد بدا عليه أنه أكثر اهتماماً بالزواج من إمرأة أخرى.

انني أعدك، بان أزيح الستار عنك حتى لا يبقى ثمة شك تحت أي حجاب يخفي حقيقتك كإمرأة.»

أراد ريكاردو سوان أن يعرف كل شيء عن ماريا. ولكنها كانت قد حصنت نفسها بحواجز تمنع أمثاله من الرجال من الوصول إليها. وكان كل حبها ومشاعرها محصورة في دورها عندما تمثل شخصية لاجيتانا الغجرية أكثر راقصات ومغنيات المكسيك شعبية. ولم يكن ثمة طريقة تجعلها تستجيب لحب ريكاردو خصوصاً وقد بدا عليه أنه أكثر اهتماماً بالزواج من إمرأة أخرى.

فانيسا غرانت

بدأت فانيسا غرانت كتابة اولى رواياتها العاطفية عندما كانت في الثانية عشرة من عمرها. وقد توقفت الرواية عند الصفحة الخمسين، ولكن فانيسا لم تنس قط سحر بعث قصة غرامية إلى الحياة. ومع أنها تابعت دراستها لتصبح محاسبة ومعلمة في الجامعة، إلا أنها لم تتوقف عن الكتابة. وفي العام ١٩٨٥ نشرت دار ميلزوبون أولى رواياتها.

وتعيش فانيسا وزوجها في منزل خشبي في الغابة، وذلك في احدى جزر خليج كولومبيا البريطانية.

قلوب عبير ٥٠٩

khouloub Abir 509

رقصة الغجرية

فانيسا غرانت

دار
مؤسسة النحاس
للطبع و النشر و التوزيع
بيروت - لبنان

www.elromances.com

الفصل الأول

أشاح ريكاردو سوان بوجهه بعيداً عن خشبة المسرح في مطعم لاكازا ديل فينيتو عندما توقفت الموسيقى عن العزف. كان يتحدث إلى النادل بصوت منخفض بالنسبة لما حوله. وبينما كان يأمر بالشراب لضيفيه، كان عقله يعود بعيداً إلى ما قبل غزو الاسبان لأميركا... قبل مئات السنين.

كان مطعم لاكازا ديل فينيتو يحتل الطابق الأول من مبنى قديم قد بني بالحجر في القرن السادس عشر. وقد صمم لكي يبقى إلى الأبد. وكان منزلا لأسرة مكسيكية غنية من سلالة مكسيكية أصيلة. وفي الثلاثين سنة الأخيرة أصبح نادياً خاصاً تأتي إليه الطبقة العالية في ماريدا لتناول الطعام في جو استعماري اسباني. وتبعاً لما يقوله البروفيسور سيلفيانو تالامتس وهو ضيف ريكاردو، فان خشبة المسرح في مطعم لاكازا كان مخصصاً لأفضل الممثلين في المكسيك.

يقول سيلفيانو ان لاجيتانا هي المتفوقة.

في الناحية الأخرى من المائدة، رفع سيلفيانو يداً مغضنة يأمرهم بالسكوت. كان عازف القيثارة على خشبة المسرح قد تقدم ووقف بكبرياء اسباني ومضى يعزف ألحان الفلامنكو.

كان ريكاردو يفضل قضاء أمسية أكثر بساطة. فقد كان عقله لا يزال مشغولاً بالألواح الحجرية المنقوشة التي

اكتشفها تحت التراب في الاسبوع الماضي فقط. كانت نقوشاً تعود إلى شعب المايان البائد في أميركا الوسطى، وذلك من العصر المتأخر، ولكنه أراد ان يأخذ اثنين من تلك الألواح إلى دوائر الأبحاث في كاليفورنيا لإجراء المزيد من الدراسات. وكان الحصول على إذن لذلك، من الصعوبة ولكن ريكاردو كان ماهراً في اقناع اولي الشأن بذلك. وبدأ بدعوة الدكتورة كاترين جينان من سان فرانسيسكو، وعندما وافقت على الحضور لأخذ صور فوتوغرافية للأحجار المكتشفة، عاد فاستدعى البروفيسور سيلفيانو تالامتس وهو رجل مسن ولكنه ذائع الصيت في علم الآثار من جامعة المكسيك فإذا استطاع ريكاردو إقناع البروفيسور بأهمية هذه الأحجار ووجوب تحديد تاريخ العصر الذي صنعت فيه، فان من السهل عند ذلك، الحصول على موافقة الحكومة بالسماح له بأخذها.

كان ريكاردو قد أحضر الرجل المكسيكي العجوز من مطار ماريدا ورأى ردة الفعل عنده للاعلان الدعائي عن ظهور لاجيتانا في مطعم لاكازا فكان أن وجه إليه الدعوة لتناول العشاء في ذلك المكان، وقبل البروفيسور الدعوة بحماس.

لكن حدث لهما في الطريق الرئيسي خارج ماريدا ما أعاقهما، وهو انقلاب شاحنة تحمل الفاكهة مما جعل ثمار الكمثرى تنتشر في كل مكان. وعندما وصلا أخيراً، وجدا صاحب المكان قد حجز لهما مائدة قريبة من خشبة المسرح. حيث أجلسهما النادل الذي بدا وكأنه نسيب صاحب المسرح.

وأومأ ريكاردو إلى النادل، الذي أسرع يقول وهو يلقي بنظره إلى خشبة المسرح: «إذا لم يكن لدى السيد مانع، فانني سأعطي الأوامر للطباخين ليجهزوا العشاء بعد ظهور لاجيتانا مباشرة. وسأحضر الشراب بنفسي حالاً.» ووافق ريكاردو.

وتمتم سيلفيانو بعد ما جلس مع ريكاردو وكاتي: «نفس ما يحدث في كل مكان. إذ يوقف المطبخ توزيع وجبات الطعام إلى ما بعد الإنتهاء من الأغنية.» وأشار بيده إشارة معبرة، وهو يتابع: «حتى أنت، يا صديقي ريكاردو، ستتوه في الأحلام عندما تغني لاجيتانا. وضحك وهو يستطرد: «لن تكون حلما من الأحجار المحفورة.»

وأطلقت كاتي ضحكة هادئة كانت تجذب ريكاردو دائماً. وقالت تخاطب سيلفيانو: «إنني أراهنك بعشرين ألف بيزوس أن ريكاردو لن يستسلم إلى إغراء لاجيتانا، وهو الملاحق بكل تلميذاته الصبايا تلك ليتحولن عنه في النهاية، مخذولات.»

وهز سيلفيانو كتفيه وهو يقول: «تلك الصبايا الشاحبات اللواتي لوحتهن الشمس. إنهن لا يملكن أية جاذبية. أما أنت، فمستثناة بالطبع، يا سنيوار.» ونظر إلى شعرها الأشقر وبشرتها البيضاء باعجاب سافر وهو يستطرد: «إن زوجك جوان قد قبض على جوهرة الشمال. ولكن لاجيتانا مخلوقة ساحرة غامضة. انها تغني الأغاني الشعبية المكسيكية على طريقة الغجر الأندلسيين... ولكنها أكثر من مجرد مغنية شعبية. إنها تمثل الغناء الفلامنغو الأصيل. ليس ثمة رجل لاتيني يمكنه مقاومة لاجيتانا.»

فقال ريكاردو: «ولكن دمي اللاتيني يغلب عليه دماء أجدادي الكنديين.» وعلى المسرح، كان الفتى اللاتيني الوسيم يعزف على قيثارته بحرارة. وبينما كان ريكاردو يراقبه، تراجع العازف إلى خلف خشبة المسرح.

وقالت كاتي تغيظه: «إن ريكاردو يراقب فقط، ولكنه لا يهتم بشيء بعد ذلك.»

فهز سلفيانو كتفيه قائلاً: «أراهن على أنه سيقع في شرك غجريتنا حالما يراها.» وأخرج من جيبه ورقة مالية وضعها على المائدة وهو يقول: «هاك يا سنيورا. هذه عشرون ألف بيزوس. هل تراهنين؟»

فقالت كاتي ضاحكة: «موافقة. ولكنني أحذرك فقد تخسر.»

وابتسم ريكاردو لكلامهما الفارغ ذاك. لم يشأ أن يضايق سيلفيانو بقوله انه يظن أن النساء اللاتينيات عاطفيات وعنيفات أكثر من اللزوم. وكانت المرأة الشقراء الجالسة معهما تميل إلى رأي ريكاردو، ومن سوء الحظ أن كاترين جينان متزوجة.

لقد سبق وكانت له مواجهة عدائية مع زوج كاتي هذه، وذلك عندما كان ريكاردو يأمل في الزواج منها. فقد كانت تمثل فتاة أحلامه. إذ كانت ذكية عاقلة هادئة، متعلقة مثله بالتاريخ والآثار، متزنة الأعصاب بخلاف أهل والدته اللاتينيين ومشاعرهم الغامضة.

كان ريكاردو يعتبر أن الزواج ينبغي أن يكون عقلانياً. ولم يكن يريد امرأة خالية من التفهم. لقد رأى ذلك يحدث بالنسبة للآخرين، مثل والدته. ومثل جوان كورسيكا الذي

ظل يلاحق كاتي لفترة طويلة في أنحاء اوروبا، قبل ان توافق على الزواج منه.

وقالت كاتي بصوت منخفض: «إذا أنا خسرت الرهان، فسيكون من دواعي سرور زوجي أن يرسل إليك برقية تهنئة.»

عاد المقدَّم إلى خشبة المسرح يعلن ظهور لاجيتانا.

فأجاب ريكاردو: «أخبريه أن ذلك سيحدث عندما يصبح منزله كخرائب شعب المايان.» ذلك انه، بالرغم من قضائه اكثر حياته في المكسيك وفي الاكوادور، فانه كان مصمماً على أن يكون حبه، إن هو وقع في الحب، مبنياً على العقل والتفكير الهادىء.

وسألها سيلفيانو: «برقية؟»

فقالت موضحة باشارة من يدها تعني انها وزوجها عندما كانا حديثي العهد بالزواج، قدم لهما ريكاردو خدمة.

وعلى خشبة المسرح، وقف رجل مكسيكي نحيف القامة، أمام مكبر الصوت، وبدأ يتكلم.

قال سيلفيانو: «لا أدري من تكون هذه. عندما رأيتها في الشتاء الماضي في مدينة مكسيكو، كان والدها هو الذي قدمها للغناء. ولكنني لم أر هذا الرجل. واعتقد ان ذلك الفتى الجميل الذي يعزف على القيثارة، كان يعزف في مكسيكو ذلك الحين. آه، انظر الآن يا ريكاردو.»

سرعان ما ومض أمام بصره ثوبها الأحمر المكون من تنورة مغربية... ربما كانت من الساتان، ولكنها تعج بالحياة. كانت عبارة عن طبقات حمراء تلتف وتدور، بينما شعرها الطويل الحالك السواد يلتف معها حول ظهرها

وكتفيها بروعة لا تصدق. كان شلالاً من الشعر الاسود يتدفق على كتفين لامثيل لروعتهما.

ورفعت رأسها عالياً على أنغام القيثارة، ثم تجمدت في وضع يأخذ بالحواس.

وابتدأت القيثارة تعزف أنغامها الشجية.

وتحركت هي...

شعرها المتناثر على كتفيها العاجيتين بما يثيره من مشاعر، التنورة الطويلة الحمراء التي كانت ترتفع مع الألحان عن ساقين تفيضان بالأنوثة...

وبدا للحظة، أنها خالية من المشاعر... ذلك أن ثوبها وحده هو الذي كان يتحرك. كانت الألحان تتخلل تلك التنورة الحمراء الثقيلة بعنف لتبرز مفاتن تلك المرأة، المستورة عن الأعين.. وكان عنقها الغزلاني الطويل... ينحدر إلى حيث طيات الساتان الأحمر تخفي تفاصيل صدرها عن أعين الرجال.

وعندما تحركت...

حدّث نفسه بأن لا شيء هناك، وأنه لا يستطيع رؤية شيء. لا شيء سوى الألحان الراقصة، والقماش. لقد كان الثوب هو الذي يتحرك. والقوام يحرك المشاعر. ولكن عقله كان مركزاً على الألحان. ألحان اسبانية. ألحان غجرية. الغموض الذي كانت تمثله هذه المرأة. العاطفة المشبوبة. الشفتان الحمراوان المنفرجتان... صوت المرأة المبحوح... العينان... لم يكن لون العينين واضحاً من هذه المسافة، ولكن المرأة نفسها كانت تتحرك وكأنما كانت تقاسيم القيثارة هي أنّات حبيبها...

كان في صوتها المبحوح دعوة لا يمكن أن يخطئها رجل.

كانت المرأة على المسرح تبدو كأنها تختنق بالأحاسيس والعواطف المشبوبة... لاجيتانا... لم يكن لها اسم على الاعلانات. لاجيتانا... الغجرية. لم تكن في حاجة إلى اعلان.

تحركت نحو عازف القيثارة، وغنت، فسرى صوتها في عروقه ليزيد من سرعة الألحان وتزداد، من ثم، سرعة نبضات قلبه. وتمايلت برقصة الغجر حول نيران مضارب النور القديمة في اسبانيا.

ثم سكت صوت المرأة، ليعلو صوت القيثارة. وتحرك جسد الغجرية على الألحان القديمة. ومن مكان ما، علا صوت الصنجات، ليختفي عازف القيثارة. وامتدت ذراعاها ترتفعان وتنخفضان باهتزازات منتظمة. ومرة أخرى، أخذ عقله يحلل سحرها منطقياً. الصنجات، وغيرها من الآلات. لقد سبق ودرس شيئاً عن الآلات الموسيقية المصنوعة من خشب شجر الكستناء، وذلك في مدينة مكسيكو.

كان كل جزء في جسدها يهتز على ايقاع الصنجات وحركات يديها وذراعيها. والموسيقى المثيرة تعد... وتعد... والعاطفة المشبوبة تمسكها، بخيط واهن. كانت امرأة تنطق كل حركة منها بالغواية.

وعندما تصاعد التوتر، وحبس المتفرجون انفاسهم، انفجرت الموسيقى، مع دقات كعبي حذائها على خشبة المسرح. وفجأة ساد الصمت وبدأت تلقي برأسها أماما وخلفاً بما يوحي بالانتصار بينما اهتزت ارجاء المكان بالتصفيق والهتاف.

www.elromancia.com

وتمسك ريكاردو بكأسه وهو يكافح رغبة مجنونة في أن يندفع إلى المسرح ليمنعها بالقوة من الرحيل.

ولكنها لم تكن راحلة بعد. لقد تقدمت نحو مكبر الصوت، بحركات بطيئة لا يمكن أن تسير بمثلها امرأة في الطريق دون ان يتبعها الرجال. حركات بطيئة جعلت انظاره تتسمّر عليها. لقد سمح لها تحركها البطيء نحو مكبر الصوت، بأن تلتقط انفاسها بعد ذلك الرقص المحموم. كانت على أهبة الغناء.

وابتدأت القيثارة تعزف الحان الغجر حول نيران مضاربهم. واهتز الثوب الأحمر ببطء...

ابتدأت الغناء ببطء، ليسري في عروق ريكاردو ببطء مماثل، عاطفة مشبوبة احتلت مكان تلك الثورة العنيفة التي شعر بها وهي ترقص.

وأمسكت يد كاتي بذراعه.

وأدار رأسه منتفضاً بعنف. كاتي بشعرها الأشقر المجعد وشفتيها العابستين. وكان وجهها أكثر امتلاءاً مما كان حين رآها للمرة الأولى. كانت مختلفة. لقد اصبحت اكثر نعومة واشراقاً نتيجة الحب الذي وجدت. كانت سعيدة بحياتها مع زوجها وطفلها القادم.

وقال: «ماذا قلت يا كاتي؟» وهنا، تحركت المرأة على المسرح، فلم يتمالك نفسه من التحول بوجهه نحوها ليراقبها.

وضحكت كاتي حتى توقف نفسها كأنما هي ايضاً قد أدركها سحر تلك المرأة، وقالت: «لا أظن رجلاً في هذا المكان مازال ضغطه طبيعياً، منذ ظهرت تلك المرأة على

المسرح. ماذا جرى لنقودي، للعشرين الف بيزوس؟»

وأفلح ريكاردو في أن يبعد أنظاره عن المسرح. عن تلك المرأة التي لا اسم لها. لتستقر عيناه على كاتي، بشعرها القصير الأشقر المتموج، وصراحتها، وعقلانيتها، اذا استثنى المرء غرامها بالرجل الذي تزوجته، فهي نوع المرأة التي سيتزوجها يوماً ما، تماماً.

أجابها: «لا تقلقي، فإنك لن تخسري نقودك، وأخشى ان يكون سيلفيانو هو الخاسر في النهاية.»

استقل سيلفيانو الطائرة، بعد ظهر اليوم التالي، من مطار ماريدا أما كاتي فقد تخلفت إلى ما بعد القيلولة موضحة انها تنتظر مكالمة هاتفية من زوجها الذي كان في عمل له في باريس، وكانت هي تأمل في ان يعود إلى ماريدا في نهاية الأسبوع.

رافق ريكاردو سيلفيانو إلى المطار مودعاً، وسلمه صندوقاً يحوي آثاراً لا تقدّر بثمن من آثار شعب المايان، لتسليمه للجامعة. ثم عاد أدراجه، ليس إلى مكان التنقيب عن الآثار، بل إلى مطعم لاكازا ديل فينيتو. حياه المدير وكأنه كان يعلم سبب حضوره.

تناول طعامه قبل أن تعود هي إلى المسرح. كان يأكل دون أن يجد لذة في الطعام، بينما كان يستمع إلى الموسيقى في انتظار ان تتبدل إلى صوت القيثارة، وهذا يعني انها قادمة إلى المسرح. وكاد يترك المكان بعد انتهائه من الطعام إذ شعر بنفسه مجنوناً حين انحدر بأحاسيسه إلى هذه التفاهات.

لكن لاجيتانا جاءت... أخيراً.

كانت ثنيات تنورتها الحمراء الطويلة تلوح حولها وهي تسير. ألقت برأسها إلى الخلف بكبرياء وتحد، ثم أخذت تغني، ليشعر هو وكأن غناءها يسري في جسده. بينما أخذت أصابعه في التشنج.

لقد أمضى وقتاً طويلاً في العمل في ياكاتان. وكان ينوي السفر إلى كويتو لزيارة والدته وشقيقاته، ثم يقوم ببعض الأعمال هناك. أو ربما يذهب إلى نيويورك لزيارة سارا، وهي عالمة آثار كانت تعمل في الجامعة إلى ما قبل سنتين.

كانت سارا شقراء طويلة القامة باردة الملامح. لا يختلف مظهرها كثيراً عن كاتي. نفس نوع النساء الذي يفضل. هدوء، ذكاء، وعقلانية.

لاجيتانا...

المرأة التي تتعلم كيف تتحرك بهذا الشكل، لابد ان تتعلم قبل ذلك، الاغواء وحرارة الحركات. تتعلم ذلك حيث تتعلم الفلامنغو. هذا إلى جانب زينة وملابس خاصة وجو خيالي يجعل قلب كل رجل يتوقف عن الخفقان... وهي ترقص لعشاقها أيضاً، العاملين على خشبة المسرح.

لم يستطع أن يقاوم قناعته بأن الخيال يستحيل إلى حقيقة عندما تتحرك. كانت حقيقة... كانت ترقص وتغني بصوت رائع... صوت منخفض أبح. والكلمات... لم يستطع ان يفكر بمعنى الكلمات. وعندما كانت ترقص، كان رقصها مشحوناً بالعاطفة... لو أنها كانت ترقص بين ذراعيه... وحدهما على ضوء الشموع... وثوبها الغجري يتماوج حولها كلما تزايدت سرعة الأنغام...

أخذ يراقبها بينما عقله يحاول أن يقاوم سحرها. كانت أنثى في غاية الجمال والوضوح. ولكنه كان يحب المرأة المفكرة العقلانية... ولن يعود إلى هذا المكان مرة أخرى.

ربما سيحلم بها كما حدث الليلة الماضية ولكنه لن يعود لرؤيتها مرة أخرى.

وتحولت الأغنية الأولى إلى رقصة بينما ارتفعت الموسيقى بشكل صارخ. لاجيتانا... ذراعاها... وجسدها... أخذت تتلوى دون كلام... كان هناك فقط، الرقص والأحاسيس في دمه. لقد ظهرت بتنورتها الحمراء الواسعة وخيال ساقيها الرائعتين في ذهنه، وكأنه لم يكن متأكداً من أنه رآهما من قبل. وكان عليه ان يمسك يديه من أن تمتدا نحوها.

إن بامكانه أن يقسم أن آخر أغنية غنتها كانت موجهة إليه. كما أنه كان يعلم أنها لم تكن لتهتم بأي من اولئك المشاهدين، إلا إذا كان لها عاشق هنا، يراقبها. نظر حوله بعنف، فوجد الجميع يراقبونها... كلهم يتمنونها. أترى ثمة بين هؤلاء الرجال من يعلم انها ستأتي إليه فيما بعد؟ إلى حبيبها؟

ربما كان الفتى عازف القيثارة هو حبيبها. لابد أنه في مثل سنها. ربما كانت هي في العشرينات من عمرها وربما اكبر، مغطية إمارات السن، بمساحيق التجميل. إنه يعرف بالخبرة، ان النساء اللاتي في أوائل العشرينات، بريئات غالباً.

وعندما تصل المرأة إلى الثلاثين...

كانت عيناها شبه مغمضتين، ونحرها مكشوفاً. كان

صوتها يهمس بالغناء والحب للرجل الذي جاء إليها سراً. وكان عازف القيثارة يرجع بأنغامه صدى أحاسيسها ولكن من الإنخفاض والنعومة بحيث يترك مجالاً لصوتها. لقد كانت لاجيتانا أكثر نضجاً من أن تناسب هذا العازف الفتيّ. لقد خلقت للحب... للعلاقات الخفية... للعواطف... في مدينة ماريدا الحارة. كانت امرأة يدفع الرجل أي ثمن لكي يمتلكها. إنه يعرف هذه الأشياء، فقد سبق وأمضى فصول صيف عديدة في الإكوادور، وذلك في حداثته، يراقب ابناء اخواله الاكبر سناً. وتلك السنة، عندما أصبح في الثامنة عشرة من عمره... أليزا...

إنها ستضحك بصوتها الأبح ذاك، وستبقى لآلىء حبيبها طويلاً حول عنقها الرائع، بعد ان يرحل حبيبها... لاجيتانا... إنه سيعطيها لآلىء هو أيضاً. كلا ليس لآلىء بل ياقوت أحمر يناسب ثوبها الأحمر. سيضع حول معصميها أساور من ذهب، وعقداً من الياقوت حول عنقها.

كان يفكر، طيلة الوقت، وكأنه حبيبها الوحيد، ولكنه يجب ان يتأكد من أنه ليس لها حبيب آخر. لا بد من أن يتأكد من ذلك.

يا للجنون! عليه الآن ان يخرج من هنا. أن يسافر جنوباً ليتفحص عمل المدير الجديد لمناجم التعدين في الاكوادور، وبعد ذلك، شمالاً إلى مناجم الذهب في كندا، ليعود بعد ذلك، شمالاً إلى مكتبه في اكاديمية العلوم... وكل مكان من تلك الامكنة، لا يوجد فيه غجريات.

وأدارت لاجيتانا رأسها.

انه يستطيع أن يقسم ان عينيها حدقتا به. لقد جعلت

الأضواء عينيها تلمعان كنار خضراء. تلك التي تنضح بالحب والغموض. صوتها... حركات جسدها... عندما يزول عنها ذلك الغشاء الرقيق من ضبط النفس، تبدأ موسيقى حبها... لابد أن تصبح لاجيتانا حبيبته قبل ان يترك ماريدا.

كان مطعم لاكازا ديل فينيتو ليلة الجمعة، غاصاً بالجموع من محافظ المدينة إلى صاحب اكبر استديو للتسجيل في مدينة مكسيكو. ولم تلمح ماريا ذلك الرجل الاسمر الفارع القامة ليلة الجمعة تلك، كما انها لم تبحث عنه. ليس تماماً.

وليلة السبت، عندما كانت تقف خلف الستار على المسرح، في انتظار ميكيل لكي يقدمها كأول نمرة، نظرت ماريا إلى أمها وهي تزيح الستارة جانباً.

وهمست ماريا وهي تمسك جانبي ثوبها الأحمر بيديها: «هل هو هنا؟»

وعادت أمها وأسدلت الستارة. وهي تقول هامسة بينما يداها تسويان من ثوب ابنتها قبل الأغنية الأولى: «الجميع موجودون. لقد جاؤوا لمشاهدة لاجيتانا.»

وأزاحت ماريا جانب الستارة، لتميز بين الحضور محافظ مدينة ماريدا مع مجموعة من ضيوفه. وخلف المحافظ كانت مجموعة من ذوي الثراء. وخلفهم... ولم تسمح لها الإضاءة برؤية اكثر من ذلك.

وعادت تهمس: «هل هو هنا؟»

فأومأت الأم بالإيجاب قائلة: «نفس المائدة. إن لك تأثيراً هناك.»

www.elromancia.com

فقالت ماريا: «إنه يثير اعصابي.»

نفس المائدة. لقد كانت مائدة خاصة تحجز لمجموعات بارزة. لأصدقاء المديرين او للرسميين من الحكومة. أما ان تشغل برجل وحده عندما تكون لاجيتانا تغني...

ولأول مرة منذ سنوات، تتمنى ماريا لو انها كانت في أي مكان، ماعدا هذا المكان، حيث تقف خلف الكواليس، على استعداد للتقدم نحو خشبة المسرح في أحد أفخم أمكنة مدينة ماريدا الليلية. وكانت، عادة، تفضل الإضاءة أثناء الغناء قصير المدة. وكان تبادل النظر مع ذاك الرجل يجعلها عصبية. ولكن، عندما تبدأ الموسيقى في العزف، كانت تنسى كل شيء، كالعادة...

كانت المرة الأولى التي لاحظت فيها وجوده، ليلة الثلاثاء. كان ميكيل يحب ان يناسب الاضاءة مع الموسيقى. وعندما انهت آخر كلمات أغنياتها، كان ما يشبه ضوء القمر يغمرها. وعندما تلاشى الضوء استطاعت ان ترى المشاهدين بوضوح. كان هو هناك.

حدث ذلك مرة أخرى أثناء القائها أغنية «الهائم.» كانت تشعر بالتوتر لأنها كانت مواجهة لمكانه عندما خفتت الأضواء. وكان هو يبادلها النظر. ولكنه، عندما ارتج المكان بالتصفيق، لم يأت بأية حركة.

كان يحدق فيها. كما لو...

قالت لميكيل تلك الليلة: «إنني لا أحب الأضواء. إنها تثير أعصابي عندما تخفت لتستحيل إلى ذلك النوع الأزرق من ضوء القمر المؤثر... حتى يجعلني انتهي وأنا أحدق في المشاهدين.»

ولكن ميكيل لم يهتم لاحتجاجها وقال: «ان تأثير ذلك رائع. إنه يزلزل المكان بالتصفيق، وإذا كنت تشعرين بالتوتر فهذا لا يظهر عليك. لا تهتمي لذلك يا عزيزتي، ودعي اخاك الأكبر يهتم بالإضاءة.»

ليلة الأربعاء، كانت تحدق مباشرة إلى الأمام ورأسها ملقى إلى الخلف وعيناها شبه مغمضتين، وذلك بعد انتهائها من أغنية «الهائم» عند ذلك، انخفضت الأضواء، وأثناء هذه اللحظات، خيل اليها انه هناك، يحدق فيها.

شهقت لرؤيته... وكأنما قد اكتسح الحاجز الذي يقوم بين المسرح والمشاهدين. ذلك الحاجز الذي جعل منها لاجيتانا.

وتمتمت الأم بالاسبانية: «زهور مرة أخرى. لقد أرسل زهوراً إلى غرفة ملابسك.»

أجابت: «قد لا يكون هو المرسل.» كانت الزهور التي يرسلها الجمهور رائعة فواحة. كانت تعشقها. ولكن الأزهار التي أرسلها ذلك الرجل الذي بقي يحدق فيها، في ضوء القمر الصناعي ذاك، طيلة الأسبوع الماضي...

وقالت الأم: «نعم. إن الازهار منه. لقد سألت صاحب المطعم، وقال...»

وقاطعتها ماريا: «كلا... لا تخبريني شيئاً عنه.» لا بد ان امها قد طرحت بعض الأسئلة. ولا بد ان صاحب المطعم يعرف الأجوبة. لقد كان يحتل افضل مائدة في المكان، وحده، في أثناء الثلاث ليالي الماضية.

عادت امها تقول: «هل رأيت الزهور يا عزيزتي؟»

أجابت ماريا بصوت أبح: «نعم، أرسليها إلى دار الأيتام. إنه يثير أعصابي.»

www.elromancia.com

فضحكت أمها قائلة: «أنت؟ إنهم يحبونك جميعاً. إنهم يرسلون اليك الأزهار مصحوبة بدعوتك إلى العشاء. إذا كان هو شخصية هامة، فان ميكيل سيدعوه إلى العشاء الأسبوع القادم.»

قالت ماريا: «كلا.»

إنها لا تريد ذلك الرجل الطويل القامة الذي يراقبها عابس الوجه.

وقالت أمها: «إنك ستبتسمين له. وهو سيتذكر دوماً هذه الإبتسامة من لاجيتانا عبر مائدة مضاءة بالشموع في ماريدا. اما اذا لم يكن ذا أهمية...» وهزت كتفيها وهي تتابع، «وقد يكون مجرد معجب.»

كان في إمكان ماريا أن تسمع صوت ميكيل من على خشبة المسرح، وكذلك عزف إميليو المتكاسل على القيثارة.

وأعلن ميكيل: «لاجيتانا...»

وبينما أخذ المتفرجون يهتفون باسمها، ابتدأ إميليو يعزف لازمة لحنها المعتاد. شعرت ماريا بجسدها يتحرك مع الموسيقى وهي تخطو نحو خشبة المسرح. كان التصفيق يهدر في أذنيها، وكانت هي تحب ان يكون تصفيق الجمهور قسماً من الموسيقى... وليس ذلك التصفيق غير المنسجم والذي يصاحبه الهتاف باسمها... كانت الإضاءة تظهرهم أمامها اشكالاً غير حقيقية. وللحظة واحدة وهي ترى خليطاً من الأشكال خلف الأضواء، شعرت بشيء من الخوف، فقد كان هو هناك، يراقبها. لم يكن يصفق او يبتسم، بل كان يرى شيئاً لا يراه

الآخرون. ولكن الموسيقى كانت تعزف الحانها، وكان جسدها يتحرك بهدوء، مما أذهب كل خوف عندها، وابتدأ الرقص على وقع الالحان لتتمايل التنورة الواسعة، ومن ثم نسيت كل شيء عن ذلك الرجل الذي بقي يراقبها طيلة الاسبوع.

وتراجع ميكيل إلى الخلف بينما بقيت ماريا وحدها مع الانغام والاضواء الساطعة، وبيدها مكبر الصوت. وزادت سرعة عازف القيثارة، وأشارت له بيدها ليخفض من سرعة العزف.

كانت أغنية عاطفية مصحوبة بموسيقى سريعة وكلمات اسبانية بصوت ابح. لقد جعلت صوتها ينطلق مع الموسيقى بهذه البحة وكلمات الاغنية تتحدث عن الرجل الذي تسلل اليها في ليلة استوائية خانقة. كان رجل الأحلام. لم تعرف له وجهاً من قبل، يسير إليها على الرمال النظيفة المنتشرة على شواطئها الخاصة دون أن يكون من القرب بحيث يصبح أكثر من حلم. كانت أغنية غجرية... وكان الحب، حباً حزيناً... حباً ضائعاً. ومع عزف الانغام العميق، مالت ماريا برأسها إلى الخلف ليمتد عنقها الطويل مما يسمح لها بأن ترسل برنين صوتها عبر اجواء الليل.

كان في إمكانها ان تشعر بالعطر الخفيف للأزهار الاستوائية في ظلام الليل. والليل يميل نحو البرودة بعد حر النهار. مالت بجسدها بموهبة وتطايرت تنورتها مع إيقاع نبضاتها. كانت الاغنية كل شيء، كانت سحراً وحقيقة، وغواية وصوتاً وشعوراً. كان في امكانها ان تشعر بذلك جميعاً، عطر الليل وسحر الموسيقى، ايقاع جسدها الذي

انعكس على حركات تنورتها والاحساس بشعرها الطويل يتماوج على كتفيها العاريتين وكأنما كان هو أيضاً حباً وواقعاً في الغرام.

كانت هي الغجرية. وكان هذا مكانها، مدفونة في الموسيقى والرقص. كانت هي الموسيقى نفسها، كما كان صوتها يرتفع بالأغنية الرقيقة إلى ذروة الحب والألم. ثم ارتفعت انغام قيثارة اميليو واشتدت وكأنها امتلأت بوحشة رهيبة. عندما انشدت آخر الاغنية، بهتت الأضواء وبقيت عيناها مغمضتين إلى أن سمعت آخر نغم من القيثارة، لتستدير مبتعدة عن مكبر الصوت.

واقتربت من اميليو، في اثناء حركتها هذه، لتمسك بالصنجات التي مد يده بها اليها، فثبتتها في يديها، ثم ضربت الارض بقدمها بعنف، ليتدفق من صوتها وجسدها زخم الحياة بأكمله... كانت أغنية امرأة تحوي الحب والعتاب.

وخفتت الاضواء وهي تنهي كلماتها.

وكان هو هناك، يراقبها.

وتبعت الأغنية أخرى، ثم أخرى... إلى ان صارت تدور خارجة من المسرح في تنورتها المتأرجحة لتجد نفسها بين ذراعي امها. ومالبثت ان دفعت ذراعي امها بعيداً عنها، ثم عادت إلى حيث كان ميكيل يعمل في ضبط الاضاءة. وقالت بحدة: «لا تضع الأضواء بهذا الشكل أثناء تاديتي لأغنية الحب في لشبونة. وإن أردت أن تتلاعب بها بهذا الشكل، أرجوك ألا يكون ذلك أثناء ادائي لهذه الأغنية.»

فقال معترضاً: «ولكن، يا عزيزتي، إن لتلاعبي

بالأضواء بهذا الشكل، تأثيراً خرافياً، وأنت في ذلك الثوب الأحمر، يغمرك ضوء القمر اثناء تاديتك لتلك الأغنية.»

فقالت متضايقة: «إنني لا أحب ذلك.»

أدار ميكيل عداداً على الجدار ضابطاً للإضاءة والصوت. كان رجلاً وسيماً جدي الملامح. وسألها عابساً: «ولِمَ لا؟»

فكرت هي في ان سبب اعتراضها هو ان ذلك الرجل الغريب كان يراقبها، مما يبدو بأن لاخيار أمامها سوى الغناء بكلمات الحب هذه، له وحده.

ولكنها لم تستطع ان توضح هذا لميكيل، فقالت: «حسناً، لا بأس. ليس هذا بالأمر الهام.» لقد كان ميكيل، أفضل صديق لها طوال حياتها، وكان حاميها ومستشارها. ولكنه لن يفهم أبداً نوع شعورها ذاك بعدم الإرتياح، كلما تلاقت نظراتها بنظرات ذلك الرجل العابس الجالس إلى تلك المائدة.

www.elromancia.com

الفصل الثاني

تمتمت ماريا بالاسبانية مخاطبة اميليو: «أريد ساعتين، يا إميليو. أخرجني من هنا لساعتين فقط وإلا فسأموت غدا اثناء التدريب.»

وانحنى أخوها الأصغر ليأخذ بيدها وهي تخرج من سيارة الليموزين.

وانحنى لهما السائق وهو يشير ناحية المنزل، وبقيت ماريا ممسكة بيد اميليو وهما يصعدان الدرج الرخامي العريض.

وابتسم اميليو وهو يقول: «هل ترين أنني خيبت املك بي من قبل؟» لم يأخذ هذا الأمر بشكل جدي كما لو كان ميكيل فعل، في مثل موقفه. كان يرتدي زيه الذي يرتديه عادة، على المسرح. كان اميليو حلم كل بنت صبية ببطل لاتيني. وقبل ان ينتهي كل مساء، يكون، دوماً، هناك صبايا جميلات يحدقن في عينيه برجاء يقطع الأنفاس.

وهمس اميليو بلهجة رسمية متكلفة: «ستكون لاجيتانا...» ورفع معصمه ينظر في ساعته، متابعاً: «في سريرها آمنة بعد ساعتين وخمس دقائق.»

فقالت تحذره: «سأمسك بكلامك هذا.»

وقد يحاول اميليو ذلك فعلاً، ولكنه لم يكن واقعياً. تناهى إليها ضجيج الحضور المحتفلين في الداخل، عندما فتحت الخادمة باب القاعة. الضحك، الموسيقى، لو

أنهم عادوا إلى الفندق قبل الرابعة، فهذه ستكون معجزة.

وتقدم نحوهما، مسرعاً، رجل رقيق وخط الشيب شعره وهو يهتف: «لاجيتانا!»

تراجع اميليو تاركاً ماريا في الضوء الساطع. وتقدمت هي إلى الأمام باسمة مخفية تعبها. أخذت الخادمة شالها من يدها بينما كان مضيفها يبتسم متحمساً ويقودها بحركة تمثيلية خلال ممر واسع معقود نحو مكان الضجيج.

كان ذلك مشهداً تمثيلياً. ألقت ماريا نظرة على اميليو، ذات معنى لكي يبقى إلى جانبها. ثم قالت لذلك الرجل: «إن منزلك رائع يا سنيور ديسكانسو.» وكان هذا صحيحاً، إذ أن مدخل القاعة كان فسيحاً رخامياً رائعاً وذا عقود عديدة.

فأشار بيده مبخساً من شأن المنزل قائلاً: «إنك تشرفينه يا سنيورا!» وأشار إلى اميليو الذي كان منشغلاً بإفساح الطريق لسيدة ترتدي ثوباً مخرماً أسود اللون ثم تابع: «والسنيور كونسرتا، إن قيثارتك هي سجادة سحرية للموسيقى الغجرية.»

كان السنيور ديسكانسو يتكلم الانكليزية كما كان يفعل منذ سنة عندما قابلته ماريا لأول مرة. كان يتكلم الانكليزية بلكنة خفيفة، ولكنه كان يبدو مصمماً على أن يثبت اجادته لها. مد يديه الاثنتين إلى اميليو. وتبادل الاثنان التحية التقليدية مما جعل معرفتهما تبدو اكثر من مجرد معرفة سطحية، ورأت ماريا في عيني اميليو نظرة تهكمية بينما كان السيد ديسكانسو يتحول نحوها قائلاً: «لقد كنت اتتبع مهنتك بكل اهتمام منذ لقائنا ذاك في مدينة مكسيكو، العام الماضي.»

www.elromancia.com

فقالت بالاسبانية: «شكراً يا سنيور.»

كان ميكيل، في ذلك الحين، يتفاوض باسمها، ذلك أن النساء في مدينة مكسيكو لا يتفاوضن في الأمور إذا كان ثمة رجل يمكنه أن يتحدث باسمهن. وفي كل الأحوال، كان ميكيل مديراً حاذقاً. افضل مما كان أبوها. وكان رئيس شركة التسجيلات الذي سجل أغانيها، قد قدم انريكو ديسكانسو إلى ميكيل وماريا بمزيد من التوقير سرعان ما عرف ميكيل سببه بعد أن تبين له لاحقاً أن ديسكانسو يملك ثلاثين بالمئة من الشركة. وكان تقديره للاجيتانا وعازفها هو الذي جعله يوجه إليها هذه الدعوة إلى منزله في ماريدا، وإلا لكانا هما الاثنان، اختارا البقاء في فندقهما لهذه الليلة، كي يأخذا قسطاً من الراحة لتحضير نفسيهما لأعياد الكرنفال في اليوم التالي. وهكذا جاءا، مرتديين ملابسهما الرسمية للمناسبة. كانت ماريا ترتدي ثوباً طويلاً أخضر من الساتان، ذا تنورة واسعة تتماوج حولها عند كل حركة.

وقال مضيفهما: «لا بد أن تقابلا اصدقائي.» وتابعت عينا ماريا إشارته نحو الغرفة من خلال القنطرة الرخامية العريضة.

الحقيقة شوهت للحظة، كان لديها وهم مما جعلها تتوقف عن الحركة.

وهمست: «كلا...» ولحسن الحظ، لم يكن همسها مسموعاً.

ولمس اميليو ذراعها قائلاً: «هل أنت بخير يا عزيزتي؟»

فهمست: «إبق بجانبي.»

كانت يد السيد ديسكانسو تضغط أعلى ذراعها، يحثها

على التقدم.. وكانت هي تتقدم... حاولت أن تحول أنظارها إلى مكان آخر. كانت الغرفة مكتظة بالناس يحيطون بالرجل. وبدا أن خطواتها تقودها نحوه، و... خطوة أخرى أو اثنتان، تهرب... تهرب بعيداً عن هذا المكان... بعيداً جداً.

كان فارع القاعة. لم تدرك مدى طول قامته من على المسرح. لقد سبق ولمحت كتفيه العريضتين عندما كان ميكيل يعدل الاضاءة. كانت عيناه اعمق من أن تدرك تفاصيلهما، يزيد في تأثيرهما حاجبان كثيفان. هذا كل ما كانت تعرفه عنه. شعر قاتم. كتفان عريضتان. وجه عابس، ثم هالة من القوة والسلطة. ثم... مراقبته المستديمة لها.

استطاعت الآن أن ترى عينيه بوضوح، كانتا بنّيتي اللون. تقدمت خطوة أخرى مبتعدة في ذهنها عن ضجيج الحفلة... والسيدان ديسكانسو وإميليو إلى جانبيها كحارسين يقودانها. إلى... إليه.

وسمرتها نظراته. وكان عليها أن ترغم نفسها على مواصلة الحركة. خطوة بعد أخرى لم يكن على وجهه أي تعبير. هل هو شرك؟ هل تهرب؟

لم تستطع الهرب. كان من الجنون أن تفكر بذلك، لقد كان اميليو إلى جانبها. وكانت هي وسط مجموعة من أثرياء مكسيكو. لقد كانت آمنة تماماً. وضعت يدها على ذراع اميليو، الذي تمتم هامساً: «ما أكبره من جمع.»

وضاقت عينا الرجل. لم تشعر ماريا بأي غضب. واشتدت قبضتها على ذراع اخيها. كان الحاجبان الكثيفان يظللان تلك العينين البنيتين الثاقبتين. والشعر الأسود المتموج دليل قوة في التصميم رغم تحفظ الملامح. لقد كانت تظنه

www.elromancia.com

لاتينياً عندما كانت تراه من على المسرح، ولكنها لم تعد متأكدة من ذلك الآن، وذلك لشيء واحد، وهو أنه كان فارع الطول. كان وجهه مليئاً بالخطوط القاسية، كما كانت شفتاه قاسيتين وهو يراقبها. كان وجهه يوحي بسهولة الابتسام، ولكنه لم يبتسم، وهو ينظر إليها، كما لو أنه عرف شيئاً فظيعاً عنها وذلك بنظرة واحدة.

لم يكن ذلك معقولاً. ولكنها تمنت لو لم تتقدم تلك الخطوة الأخيرة نحوه، كانت كلما نظرت إليه من فوق المسرح، تشاهد ذلك العبوس. تلك العينين. الرجل الذي سبق ورفض الجلوس إلى الناحية الأخرى من الأضواء.

لقد أخافها.

كان ذلك وهماً. تلاعباً من ميكيل بالإضاءة، وهذا لن يحدث مرة اخرى. لقد كانت هذه ليلتها الأخيرة في ذلك المطعم. وفي الأسبوع القادم كان عليها أن تغني في الكرنفال. ثم ترحل بعد ذلك. إنها لن تراه ابداً مرة اخرى، إنه لم يعد، بعد الآن، خطراً عليها أكثر من كل تلك المئات من المشاهدين من الرجال الذين كانت نظراتهم تتخطى حدود الأدب واللياقة. عليها فقط، أن تجتاز هذه الليلة ومن ثم تصبح آمنة منه.

حاولت أن تنظر بعيداً.

وتمتم مضيفها وهو يشير إليها بالتقدم: «أقدم إليك الدكتور ريكاردو سوان. وهذه لاجيتانا، غجريتنا.»

وانحنى الدكتور سوان قليلاً بابتسامة تهكمية. فانحنت هي بدورها باحترام. ومد هو يده إليها وقد ظهر في عينيه وكأنه يأخذ لحركتها هذه معنى ما.

ولم تشأ أن تدعه يلمسها، ولكن لم يكن لها خيار.

وببطء، رفع أصابعها إلى شفتيه وعيناه في عينيها. لم تستطع تحويل نظراتها بعيداً.

سألها بصوت عميق منخفض النبرات إلى درجة بدا معها وكأنه يبدأ في الغناء: «هل أنت غجرية حقاً؟»

كان في لغته الاسبانية لكنة خفيفة لم تلاحظها. ولمست شفتاه ظهر يدها بخفة لم تلحظ معها اللمسة. شعرت فقط برعشة في جسدها وهي تسحب يدها من يده، قائلة بصوت أبح بدا فيه شيء من الضيق: «الغجر حالة ذهنية.»

أضاف السيد ديسكانسو: «وهذا ساحر القيثارة، اميليو كونسرتا.»

وضاقت عينا الدكتور سوان. وانحنى اميليو بتكلف. وبدا تصرف اخيها ضعيفاً أمام شخصية الدكتور سوان القوية المسيطرة الواثقة، ان هذا النوع الواثق من نفسه من الرجال، لم يكن يعجبها.

لقد اخبرتها عيناه عما يريده منها.

كان قد ارسل إليها وروداً... وروداً حمراء. ولو استطاع لرقص معها بعد ذلك، وربما يحشرها في زاوية ليطلب منها اشياء بصوت هامس، بحيث لا ترضى امرأة محترمة بأن تستمع إليه.

لقد كان اسمه، ريكاردو سوان، نصف لاتيني، والنصف الآخر من اميركا الشمالية. لا بد أنه غني. كانت واميليو، هما المحتفى بوجودهما، أما الآخرون فكانوا موجودين بفضل ثرائهم او شرف انسابهم. رفعت عيناها قليلاً لتلتقيا بعينيه. واستطاعت تمييز ما فيهما، لم تكن هي المرة

الأولى التي تميز ما فيهما. ولم يكن أول رجل قوي الشخصية تشعر بالسرور تجاهه لوجود شقيقاها إلى جانبها. لم تكن ماريا ساذجة، ذلك أنها تدرك جيداً غاية رجل غني مثقف من مطاردة لاجيتانا الغجرية.

حسناً، فلتدعه يطارد، فهذا لن ينفعه بشيء، فإن وجود ميكيل واميليو بينها وبين رجل مثله، لا يترك لها سبباً للشعور بالخوف والتوتر. ولا شيء يجعلها تظن أن مثل هذه النظرة من رجل ما، تختلف عن نظرات غيره من الرجال الذين يصفقون لها بعد نهاية العرض.

واتجهت نظراته إلى ثوبها الساتان وهو يقول بالاسبانية: «إن رقصك يغلب عليه الطابع الأندلسي. ولكنه ليس بالرقص الفلامنغو الخالص.»

قالت بهدوء: «إذا كنت تجد رقصاً فلامنغياً خالصاً، فلن تجد اثنين يتفقان على ذلك.»

وانتقل هو بخفة، إلى الكلام باللغة الانكليزية قائلاً: «هل تظنين أنك تؤدين فنك هذا بشكل شعبي سليم؟» هل كان يختبرها، ليرى مقدار ثقافتها، وعلمها باللغات؟ كان يبتسم وكأنه يسخر منها.

أجابت هي بالانكليزية: «إن رقص الفلامنغو لا يمكن أن يفهم خارج نطاقه التاريخي. ذلك أن الموسيقى والرقص الشعبيان هما اشياء موجودة حية.» ورفعت انظارها لتلتقي مباشرة بعينيه. وكانت هذه غلطة منها. ادركت ذلك حين تشابكت نظراتهما، ولم تستطع هي ان تحول نظراتها بعيداً.

عاد يقول: «ولاجيتانا؟ من تكون؟» ولكنها تجاهلت السؤال قائلة: «إن لي السرور بمعرفتك، يا دكتور.»

دكتور بماذا؟ وارتجفت وهي تتصور نفسها معه وحدهما في غرفة الكشف.

وقال برقة: «أدعني ريكاردو.»

فقالت دون أن تكرر الاسم: «شكراً للأزهار التي ارسلتها. هل ارسلت زهوراً؟ ورداً؟»

أجاب: «وسأعاود الارسال.»

وأخبرتها عيناه أنه مصمم على انشاء علاقة معها اقوى من مثل هذه العلاقة في حفلة السيد ديسكانسو. يجب أن تأخذ عطلة عندما تدخل نظرة في عيني رجل، إلى اعماقها بهذا الشكل، إن ثمة شيئاً خطراً بالنسبة لهذا الرجل، خلاف غيره من الرجال.

وسأله اميليو: «هل انت دكتور في الطب؟»

وتنفست ماريا بعمق. لقد جعلتها هاتان العينان البنيتان تنسى اين هي. إنها حفلة هادئة في منزل في ماريدا، وأخوها بجانبها يسأل الدكتور سوان بشكل مهذب، ولكنه كان حارسها، وكان هذا اجتماعاً شكلياً تماماً.

وأجاب دكتور سوان: «انني دكتور بعلم الآثار.»

فكرت هي، علم الآثار؟ هذا معناه أنه هنا في يوكاتان إنما ينقب عن تاريخ شعب المايان. لقد كان يبدو اكثر من ذلك! بمثل هذه الشخصية المسيطرة والقوة في هذه الملامح. قوة مخيفة، إنه رجل يعرف أنه سينتصر.

كان السيد ديسكانسو يتحدث، فاغتنمت ماريا الفرصة شاكرة، لكي تتحول عن الرجل الذي أشعرها بمثل ذلك الضيق. وقادها مضيفها نحو امرأة شقراء ترتدي ثوباً

فضفاضاً من الساتان، وهو يقدمها إليها بقوله: «السيدة كاتلينا جينان دي كورسيكا.»

كانت هي المرأة التي كانت تجلس إلى مائدة الدكتور سوان، تلك الليلة الأولى. لقد كانوا ثلاثة، وكانت هي بينهم بالتأكيد. وأخذت تتحدث إلى ماريا باسبانية طليقة.

نسيت ماريا، للحظة، أن اخاها بجانبها كان يتحدث إليها، وسألت المرأة الشقراء: «هل تسكنين هنا في ماريدا؟»

فأجابت: «كلا. بل أسكن في سان فرانسيسكو. وأنا بانتظار قدوم زوجي إلى هنا.» وانتقلت نظراتها إلى ذلك الجمع وكأنها تتوقع ان ترى زوجها في أية لحظة، ثم أضافت قائلة بابتسامة دافئة: «خاطبيني باسم كاتي.»

معنى هذا انها متزوجة! وانتقلت عينا ماريا إلى دكتور سوان. لقد كان في تلك الليلة الأولى في الملهى، يتحدث معها ويضحك. لقد رأتهما ماريا قبل أن تعتلي خشبة المسرح.

وأخذ السيد ديسكانسو يقدم ماريا إلى اشخاص آخرين مما سمح لها بأن تترك مكانها إلى مكان آخر، ليتبعها اميليو بعد لحظة، ثم ما لبث أن غاب عن عينيها، ولكن ذلك لم يعد يهمها. في ذلك الوقت، كانت ماريا جالسة آمنة بين أربع سيدات. وأحضرت لها خادمة، شراباً. وفي الزاوية، كان هناك رجلان يعزفان على القيثارة برقة. لم يكن ثمة رقص، وإن كان من المحتمل أن يكون ذلك فيما بعد. وربما يطلب من ماريا أن تغني. وفكرت بسخرية أنها ستغني بدل عشائها. ولكن السيد

ديسكانسو طلب منها ذلك بلهجة تستطيع معها أن ترفض. ولكنها وافقت بالطبع.

ولكنها ستتناول عشاء خفيفاً، قبل ذلك. فقد قال مضيفها هذا... وهكذا ستكون في غاية الجوع عندما تعود إلى منزلها. كانت تعلم أن الدكتور سوان سيأتي إليها قبل ذلك.

اختلست نظرة إلى حيث كان، ولكنها لم تجده. وتمنت، مرة أخرى، لو أن ميكيل جاء معها هذه الليلة. كان أخوها الأكبر ماهراً في التخلص من الرجال الذين كانوا يظنون أن بإمكانهم اصطياد تلك الصورة التي يرونها على المسرح. كان قد ورث طول قامته عن جدتهم الأميركية. أيضاً، كان يبدو عليه الجد التام وهو يشير بأنها اخته، ذلك أن وجوده بجانبها كان يبعد عنها الجميع.

امرأة جميلة شابة من مدينة مكسيكو بدأت تسأل ماريا عن اصل اغنية «حب في لشبونة» وسألتها الفتاة العادية الجمال التي بجانبها عما إذا كان لها زوج.

وأجابت ماريا: انني مشغولة جداً عن الزواج.» فضحكن جميعاً، وتساءلت احداهن عما إذا كان ثمة امرأة مشغولة عن الزواج.

وقالت واحدة منهن تدعى كونسيلو: «معظم الرجال هنا متزوجون.» قالت ذلك وهي تنظر إلى ما وراء ماريا.

وبحركة لا إرادية، أدارت ماريا رأسها، كان واقفاً على بعد ثلاثة أمتار تقريباً. وقد استغرق في حديث عميق مع تلك المرأة الشقراء التي تدعى كاتي.

فقالت كونسيلو: «هذا الرجل لي أنا.» فضحكت النساء الأخريات. وقالت المرأة التي من مدينة مكسيكو: «إنها

تتمنى ذلك. إنه مرتبط بآثار شعب المايان. وربما هو يتمنى أن يتزوج المرأة الشقراء. لقد ظننا جميعاً، في الصيف الماضي، أنهما سيتزوجان.»

«ومن هي تلك المرأة؟»

«إنها زوجة جوان كورسيكا؟ إنه ثري جداً وأيضاً...» وأشارت بيدها ما أوحى بأنه وسيم جداً كذلك. واستطردت «إنها أميركية. وزوجها سيأتي الأسبوع القادم. وكما ترين من مظهرها، تبدو حاملاً. هي أيضاً دكتورة مثل دكتور سوان، تعمل بالتنقيب عن آثار المايان. أما ذلك الرجل، فهو من كل مكان. إن كونسيلو ليست هي الوحيدة التي ترجو أن تلفت أنظاره.»

وضحكت النساء وكأنها كانت نكتة مألوفة.

وقالت كونسيلو: «ربما كان يريد لاجيتانا. لو كان لي مثل جمالك...» وحركت وجهها بإشارة ذات معنى، وعلا الضحك مرة أخرى. وأمكن ماريا، بشكل ما، أن تبتسم لمزاحهن هذا معها. وقالت احداهن: «إنه من أسرة راقية جداً. ولكنه ليس...» وأشارت بوجهها إشارة ذات معنى.

وهزت كونسيلو كتفيها قائلة: «ربما كان حقاً يحب تلك المرأة الشقراء، أو ربما وعد فتاة بالزواج في الاكوادور.»

قالت ماريا لمجرد السؤال وإن لم تكن تهتم بالجواب: «هل هو من الاكوادور؟»

فأجابت كونسيلو: «أمه من هناك ولكنه يتنقل دوماً... إلى كاليفورنيا، إلى الاكوادور، إلى بلاد أخرى، من يعلم؟»

قالت الفتاة الجميلة: «إن كونسيلو تحلم. إنها دائمة

التردد على أماكن الآثار ما دام هو هنا، ويمتلكها الحزن عندما يسافر.»

وعزفت الموسيقى. نظرت كونسيلو إلى شخص ما وراء كتف ماريا. وعندما التفتت هذه، ورأت السيد دسكانسو، وعاد قلبها إلى خفقانه الطبيعي.

وتمتم قائلاً: «هل لك أن تمنحيني هذه الرقصة، يا لاجيتانا؟ إنها الفالس فقط فأنا لا أستطيع أن أرقص الفلامنغو. ولكن، إذا أردت أن تمنحيني هذا الشرف.»

ابتسمت وهي تقوم معه إلى حلبة الرقص، ورأت انهما سيكونان أول الراقصين. لقد كان هو مضيفها، وابتدأ الرقص مفتتحاً الحلبة مع ضيفته الشهيرة.

وابتسمت وهي تنساب بين ذراعيه، وأراد أن يسعدها فلم يحضنها بشدة ولم يسألها أي سؤال. وعلى كل حال، كانت تفترض أنه يعلم كل شيء عنها تقريباً من الاستديو. فقد كانت حياتها تخلو من الأسرار.

وسألها: «هل اعجبتك مدينة ماريدا، يا سنيورا؟»

قالت: «نعم، خصوصاً أثناء الكرنفال.»

فضحك وهو يميل بها حول عمود كان في طريقهما، ثم قال: «أحقا؟ إنك المغنية التي سيحضر كل شخص لكي يراها، هذه السنة. أليس هذا عملاً مرهقاً لك؟ لا بد أنك تمارسين هواية ما...»

شيء ما في ابتسامته ذكرها بعمها.

واعترفت قائلة: «إنني أخرج متخفية أثناء النهار.» فقال وهو يومىء برأسه متفهماً: «مثل الصبي الذي يختبىء لكي لا يذهب إلى المدرسة؟ إنني أفعل نفس الشيء في منزلي

خارج مدينة مكسيكو. إذ أدعي أنني رجل فقير فأستطيع، بذلك أن أزاول وأسرتي المسرات البسيطة. ماذا تفعلين عندما تهربين من شخصية لاجيتانا؟»

قالت: «أفعل ما يفعله أي شخص آخر أثناء الكرنفال. أسير في الشوارع. أزور حوانيت الفنانين. أشتري «البوشار» وآكله في الطريق. اتفرج على الأولاد الذين يتجمعون لرؤية الساحر.»

فهز رأسه وهو يقول: «إن صورتك في كل مكان على الاعلانات في ماريدا. وستكون ثمة مظاهرة عندما يميزونك في الشارع.»

قالت: «لن يميزني أحد. سأكون متنكرة.»

فضحك مسروراً، ثم قال: «هل تأتين لتناول العشاء معنا، أنا وزوجتي، عندما تحضرين إلى مدينة مكسيكو الشهر القادم.»

فسألته: «هل يمكنني إحضار أخي معي؟»

أجاب: «بالطبع يمكنك ذلك، إن زوجتي هي، كما تعلمين، بريطانية. ولكن والدها...» وابتسم كأنه يقدم إليها هدية بقوله «كان والدها غجرياً من الأندلس، إنها ستسر بك كثيراً.»

فهزت ماريا رأسها قائلة: «إنني فقط اقوم بدور الغجرية. وستكتشف زوجتك ذلك.»

فقال: «انك تقومين بهذا الدور ربما بشكل افضل مما تدركين. آه، ها هو ذا قادم..»

سألته: «من هو؟»

قال برقة وهو يبتسم لها وكأنما هي ابنته: «ومن غيره؟

لقد كان يراقب الباب إلى أن جئت، ثم ابتدأ يراقبك.»

ولم تستطع أن تراه. ولكن أنفاسها احتبست في صدرها. ليس الآن... إنها بحاجة إلى دقيقة، بل ثوانٍ لكي تهيىء نفسها للقائه، إنها بحاجة إلى قناع الغجرية، ففي هذه اللحظة، لا يتملكها سوى الشعور بالعصبية نحوه كرجل.

وسألها مضيفها: «هل يمكنني أن أقدم هذه الرقصة له؟ يا سنيوريتا؟ إنه، على كل حال..»

هزت رأسها بيأس وهي تقول محاولة التملص: «علي أن ابحث عن اميليو.»

فقال: «إنه يرقص مع ابنة أختي. إنني متأكد من أن ابنة أختي في غاية السرور بمراقصتها لعازف القيثارة للاجيتانا. وستكون في السوق غداً لتشتري كل تسجيلات أغنياتك. أين تعلمت لغتك الانكليزية الجيدة هذه؟ آه...»

لقد كانت بنفس طول السيد دسكانسو، ولكن كان عليها أن ترفع رأسها لكي تنظر إلى عيني ريكاردو سوان. كان واقفاً خلف مراقصها ووضع يده على كتفه، قائلاً بأدب: «أتسمح؟»

وتنهد السيد ديسكانسو وابتسم لماريا قائلاً: «سنيوريتا، إنني سأتذكر هذه الرقصة إلى الأبد. لقد اعدت الرجل العجوز إلى شبابه.»

أخذ ريكاردو سوان مكانه. أخذ ماريا بين ذراعيه. لقد انتقلت من رجل إلى آخر، من الأمان إلى الخطر... كانت تفكر بذلك بعنف وكأنما...

ولكنها كانت رقصة... إنها رقصة فقط. مجرد اداء صعب، وهذا كل شيء.

كان اكثر حيوية في الرقص، من السيد ديسكانسو المسترخي الجسم بمراحل، وكان لجسده احساس بالموسيقى دعاها إلى أن تندمج في الرقص.

وسألها وهو يقود خطواتها على انغام الموسيقى: «أين تعلمت لغتك الانكليزية؟» كانت يده على ظهرها بطريقة جعلت اطراف اصابعه على القسم العاري من ظهرها مما أحدث رجفة في جسدها.

أبعدت هي جسدها عنه قدر استطاعتها. ولم تستطع أن تتنفس.

وعاد يذكرها، بالاسبانية، بنفس السؤال.

وغصت بريقها قبل أن تجد صوتها، لتقول: «لقد نشأت وأنا اتحدث اللغتين الانكليزية والاسبانية في المنزل.»

سألها: «لماذا؟»

فأجابت: «لقد كان أبي نصف أميركي.» فقربها إليه أكثر. وحدقت هي في كتفه، وهي تشعر بالضيق من طوله الفارع وعرض كتفيه.

وعاد يقول بالانكليزية: «لقد علمت أن أباك كان قد قدمك فنياً حين كنت تغنين في مكسيكو، العام الماضي.»

أومأت موافقة وهي تنظر إلى يدها في يده. لم يكن يشد على يدها وشعرت برغبة في أن تبقيها في يده. يجب أن تدعه يشعر باضطرابها للمسته، وتابعت قائلة: «لقد توفي أبي السنة الماضية.»

فقال: «إنني آسف.»

كان اميليو يكتسح حلبة الرقص مع ابنة أخت السيد ديسكانسو، بطاقة فياضة. وبدا على الفتاة التوهج وأنها

شبه غارقة في الحب. كذلك بدا التأثر على إميليو أكثر من المعتاد مع أن الفتاة لم تكن شقراء إذ أنه، كالكثير من رجال بلاده، كانت تجذبه النساء الشقراوات.

فجاءها صوت ريكاردو: «إنه صغير بالنسبة إليك.»

فشهقت قائلة: «ماذا؟» وهنا، اقترفت غلطة إذ رفعت عينيها لتحدقا في عينيه مباشرة. كان بالغ الطول، وهي لم يكن يعجبها أن ترقص مع رجل يجعلها ترفع أنظارها إلى أعلى لكي تكلمه.

فاشار إلى اميليو ومرافقته قائلاً: «إنه عازف القيثارة، حارسك. إن تلك الفتاة تناسبه سناً أكثر منك. وأنا متأكد من أن في امكانك العثور على من هو أفضل منه.»

فرجعت بجسمها إلى الخلف. ولكن ذراعه حولها منعتها من الهرب، كذلك كان هناك سبب آخر وهو أن نصف الموجودين كانوا يراقبونهما. لقد أرادت أن تهرب ولكنها كانت متأكدة من أن النصف الآخر من الموجودين كانوا سينظرون إليهما، إذا حدث وهربت لاجيتانا من رجل في حلبة الرقص.

وعاد ريكاردو يقول: «ولكن، ليس مضيفك. إنك لن تفكري بجذبه بالرغم من مديحه الرقيق للاجيتانا. إنه مغرم بزوجته إلى حد سخيف. ما هو اسمك؟ إنني أرفض أن أدعوك غجرية.» فتحركت محاولة أن تدفع عنها لمسته. كانا يرقصان وكان عناقه لها كأي عناق عادي بين راقصين، ولكنها شعرت بوجهها يضطرم حرارة، وصدرها يضيق. لا بد أن تبتعد عنه.

وسألته: «هل هنالك نصائح أخرى؟ لقد اقترحت علي

أن اترك اميليو وأن لا اربط احلامي بالسيد ديسكانسو.»

فقال: «لقد قلت أشياء كثيرة، ولكن تأثيرك على الرجال كبير.» وشدتها يده إليه في محاولة لتفادي العمود الذي كان اميليو قد اخذ مرافقته الصغيرة إلى خلفه. وتابع ريكاردو قوله: «إنني متأكد من أنك تدركين مبلغ تأثيرك على الرجل الذي ترقصين لأجله.»

فسألته بصوت كالثلج: «ماذا يعني هذا الكلام بالضبط؟» ومالت برأسها إلى الخلف وهي ترفع أنظارها إليه. لو أن ميكيل هنا... إن اميليو غير قادر على أن يرفع عينيه في هذا الرجل. إن العجرفة في عينيه تشهد بأنه يعلم تماماً مقدار قوته.

وتمتم مبتسماً ببطء: «سنترك هذا الحديث إلى وقت آخر.» وأرادت هي أن تحول نظراتها عن نظراته ولكنها لم تستطع، كما يبدو، أن تفعل أي شيء عدا التحديق إلى أعلى حتى ابتدأت تصاب بالدوار.

وقال بصوت أجش كصوت العاشق: «إن لك عينين رائعتين.»

فهزت رأسها وهي تزدرد ريقها. ثم أخذت تحدق الآن في كتفيه. كان يرتدي سترة بنية فاتحة اللون. وكانت عيناه خطرتين. ربما لأنه كان عليها أن ترفع رأسها لتنظر إليهما. إلى أعلى دوماً حتى أنها شعرت بضآلة حجمها. ضئيلة، ضعيفة عاجزة.

وعاد يسألها: «أين تلقيت ثقافتك؟»

هزت رأسها. لقد توقفت الموسيقى، لتخطو هي إلى الخلف مبتعدة عنه.

لكنه قال بهدوء ومازال ممسكاً بيدها، ويده الأخرى على ظهرها: «كلا. سأطلب رقصة أخرى.»

وتخيلت نفسها برعب، وهي تتركه هاربة لتختفي خلف العمود، ولكنه سيطاردها ليمسك بها بكل سهولة. وعزفت الموسيقى مرة اخرى، وابتدأ هو يتمايل معها.

وعاد يسألها: «أين تلقيت ثقافتك؟»

ردت عليه بنفس سؤاله: «وأين كنت أنت؟» كان هو قد ازداد اقترابه منها الآن، وأصبحت حلبة الرقص اكثر ازدحاماً. وكان جسداهما يحتكان أثناء الرقص، وكان جو القاعة حاراً، خانقاً.

وأجابها بقوله: «تعلمت في مونتريال، ثم في كويتو، ثم في هارفارد، وأخيراً في أكاديمية العلوم في لوس انجلوس.»

لقد تلقى علومه في ثلاثة بلدان إذاً، كندا، الاكوادور، ثم الولايات المتحدة. وفتحت فمها، ولكنها لم تقل شيئاً. كل رنة في صوته كانت تخبرها عما يريده منها. لقد كان خطراً. لقد رأت ذلك في نظراته. إنه يريد الصورة التي شاهدها على المسرح. لاجيتانا. لقد كانت الغجرية امرأة خلابة. ولكنه من نوع الرجال الذين يحصلون دوماً على ما يريدون.

كان يريدها.

رفع يده الممسكة بيدها، إلى ذقنها يرفع وجهها إليه قائلاً: «جاء دورك الآن لتخبريني.»

همست: «تشيواها ثم لوس أنجلوس، ثم مدينة مكسيكو.»

قال: «لوس أنجلوس؟ متى كان ذلك؟»

لم تكن تريد أن تجيب. كانت تعلم أنه كان عليها أن تمثل عليه دوراً، ولكنها لم تستطع خاصة معه هو.»

وقال: «انك لست كما كنت أتوقع، تماماً.» وشعرت بجسدها يتصلب. وسألته: «ماذا كنت تتوقع؟» وأدركت مذعورة، أنهما كانا يرقصان في الفسحة التي تقود إلى الشرفة. هل كانت خارجة معه إلى الشرفة؟ أرادت أن تبتعد عنه، ولكن كان عليها أن تسحب نفسها بشدة. وإذا هي تحدثت كثيراً، فقد تصرخ في النهاية بدلاً من الهمس. وشعرت أنها ضعيفة هشة وأن يده تستطيع أن تحطم يدها بسهولة. نظرت في عينيه، وشعرت بالسرور إذ حل الغضب في نفسها مكان الذعر. وقالت: «ربما توقعت أن أكون... أسهل انقياداً؟»

كان يقترب منها، بينما أخذت هي في الابتعاد عنه. باتجاه الشرفة التي في الخارج. كان الهواء منعشاً وكان هو بينها وبين الباب المؤدي إلى الضيوف.

وأخيراً، كانا في الشرفة بمفردهما، كيف سمحت له بأن يفعل ذلك؟ وأحست بخوف حقيقي، وتسارعت أنفاسها.

سألته: «هل ظننت أنني ربما كنت أرقص الفلامنغو لأجلك؟»

فقال بجد وقد ظهرت الرغبة في عينيه: «توقعت اكثر من الفلامنغو.»

فقالت تردد كلامه: «أكثر من الفلامنغو؟» لقد كان الآخرون بعيدين عنهما الآن. ولكن الصراخ يتجمد في حلقها. ومالت برأسها إلى الخلف لتتمكن من النظر إليه غاضبة، وهي تقول: «وما الذي جعلك تخطط لإقناعي بأن

اعطيك اكثر من رقص الفلامنغو؟ إنني غالية الثمن. هل فهمت؟» وشملت انظارها الغاضبة جسمه بأجمعه وكأنها تقيِّمه بها، وتابعت تقول: «ليس عندي فكرة عن أسعارك. ورود؟ أعلم ذلك. لقد أرسلت ورود. وماذا يأتي بعد الورود؟» وعادت تلقي برأسها إلى الخلف تحدق في وجهه.

كان غاضباً وقد قست ملامحه. وأمكنها أن ترى فيه شخصيتين متناقضتين. ريكاردو سوان، والرجل اللاتيني. ولكن، لو لم تكظم شخصيته الأخرى الباردة غضبه، لندمت على صراحتها تلك.

وجذبت نفسها منه، فزالت لمسته عنها، ولكنه بقي يتأملها. ولم تكن هذه طريقة ناجحة للتخلص من أي رجل. لقد كانت تعلم أن ذلك سيسبب لها الازعاج... ولكنه أخرجها عن اتزانها، إذ وضع يديه عليها في باحة الرقص عندما لم تكن تتوقع ذلك، وهو الآن يقف كحاجز بينها وبين قاعة الرقص بقامته الطويلة وكتفيه العريضتين.

وضحكت بشيء من التهكم قد يصدر عن غجرية حقيقية. وفجأة كانت مرة أخرى على المسرح، وكان هو في الناحية الأخرى من النور. وكانت مسافة السنتمترات بينهما حاجزاً من نوع ما. كانت هي لاجيتانا، غجرية أندلسية تشتعل ازدراء لاسباني غني يلاحقها بعواطفه.

كانت هذه هي المسألة. مجرد عواطف.

قالت: «ياقوت؟ ذهب؟ هل الثمن الذي يمكنك دفعه يصل إلى الماس؟»

قال بهدوء: «هذا فقط إذا كنت جيدة جداً.»

قالت: «إنني غالية جداً.» وأطلقت تلك الضحكة، الضحكة التي نطقت بكل الكبرياء والعاظفة الجياشة التي يمتاز بها الفلامنغو. ثم مالت إلى الأمام وهي تقول بوضوح: «وأنا لا أريدك، إن الماس وحده لا يكفي.»

جذبت تنورتها جانباً بعنف كما تفعل الغجريات اللاتي تقلدهن، واقشعر جسدها وهي تحاول المرور من جانبه وإذ به يمد يده بقوة محاولاً الامساك بها دون أن تراه. وشعرت بقوة يده تلك التي قبضت على يديها الاثنتين. لم يكن قد استعمل قوته تلك ضدها، ولكن، كان في استطاعته ذلك بسهولة. وماذا كان في استطاعتها أن تفعل حينذاك؟

هل تصرخ؟ وكيف تعلل هذا الأمر بعد ذلك؟ بمزاج الفنانة؟ ليس ثمة عذر آخر، فهو لم يلمسها إلا بمناسبة الرقص. وهو الآن خلفها. كان خلفها.

وأسرعت إلى الداخل، إلى الأضواء. ورسمت على شفتيها ابتسامة وهي تشق طريقها بين الراقصين. عندئذ، ولحسن حظها وجدت إميليو أمامها دون ابنة اخت المضيف بين ذراعيه.

وقالت له وهي تمضي بين ذراعي أخيها: «هيا، ارقص معي وأرجوك لا تسمح لأحد أن يطلبني منك.»

الفصل الثالث

توقفت ماريا عند كشك يعرض مصنوعات جلدية. كانت تعشق الكرنفال.. الموسيقى.. الألوان.. الأشغال اليدوية التي كانت تجلب من المدن لتباع في الازدحام. ناس كثر.. ألوان كثيرة.. كثير من الأصوات المشوشة. مدت يدها تتلمس الحقائب الجلدية الناعمة.

انها ستكون على خشبة المسرح هذه الليلة. ولكنها تمكنت من الهرب بعد الظهر لكي تتفرج على شعوذات الساحر.

قال البائع: «بعشرة دولارات القطعة، يا سنيورا، وهذا سعر خاص لك.»

لقد تحدث إليها بالانكليزية وذكر لها السعر بالدولارات، مما يدل على أن زيها كان له تأثير بالغ، حيث كانت تتعمد الظهور بمظهر السائحة. كان صحيحاً ما أخبرت به ديسكانسو من أن لا أحد يتعرف عليها ان هي ارتدت الجينز وربطت شعرها إلى الخلف بشكل ذيل الحصان.

وأجابت البائع بالانكليزية باسمة: «كلا، شكراً.» وابتسم لها البائع بدوره.

وفي الكشك التالي وجدت ماريا امرأة مسنة تضع على كتفيها شالاً باهت اللون تعرض اطباقاً من السيراميك المدهون. ولمست بيدها زهرية رقيقة. لم يكن ثمة اسعار على المعروضات. الأسعار لم تكن ثابتة، كانت

مرتفعة بالنسبة إلى السائحين، وزهيدة بالنسبة إلى المواطنين.

فقالت لها البائعة: «خمسة دولارات.»

فهزت رأسها ثم تابعت طريقها. لم تكن تشعر بالرغبة في شراء شيء. كانت تريد فقط أن ترى وتلمس وتتنفس أجواء الكرنفال في ماريدا. تلمست عباءة منسوجة حمراء قانية في معرض للألبسة الملونة. عندئذ شمت رائحة جعلتها تميل برأسها وتتفرس بين الجموع.

كانت هناك عربة من الفولاذ اللامع في الزاوية تبيع الفطائر. وفي أعلى العربة، قام موقد تعلوه مقلاة كبيرة، يتصاعد منها البخار. كان هناك غلام في نحو الرابعة عشرة، يحرك قطع اللحم في الزيت المغلي بشوكة طويلة في يده. اقتربت ماريا من العربة ثم وضعت قطعتين من النقد.

وقالت للغلام: «أريد واحدة، من فضلك.» لقد سبق وصممت على أن تمضي هذا النهار كسائحة لا تعرف كلمة من الاسبانية.

ورفع الغلام قطعة من اللحم من المقلاة.

وشهقت عندما شعرت بيد توضع على كتفها، لتسمع صوت رجل يقول: «إني مازلت أراقبك منذ كنت في الكشك الذي يعرض الجلود.»

واستدارت لترى المتكلم. كان ريكاردو سوان. كان يحدق بها بفضول فاضح. لم تستطع الكلام برهة طويلة. وما لبثت أن تذكرت أنها سائحة اجنبية لهذا النهار، فصممت على التظاهر بأنها اميركية من أصل انكليزي، وقالت بضيق وأدب: «أرجو المعذرة؟»

فهز رأسه وقد اتسعت ابتسامته وقال: «ماريا، ماريا كونسرتا.»

فهزت رأسها منكرة ذلك.

وضغطت اصابعه على كتفها: «ما دمت ستتحدثين إلي في النهاية، فلماذا هذا التمثيل؟ لماذا تزاولين هذه اللعبة معي؟»

فهزت رأسها مرة أخرى، ببطء.

وقال للغلام الذي يقلي اللحم: «اصنع لي واحداً.» كانت يده مازالت على أعلى ذراعها. فكرت في أن قبضته ستشتد فيما لو حاولت جذب ذراعها منه. فهي تعلم جيداً مدى قسوة قبضة الرجل.

وقالت وهي تحاول أن تكبت صرخة. «دعني.»

فقال: «ليس الآن. سنستعرض التمثيليات الأخرى اثناء تناول الطعام، أليس كذلك؟»

فقالت بحدة: «كلا، لن نفعل ذلك.»

فابتسم وكأن إنكارها لا يعني له شيئاً. رجعت خطوة إلى الخلف، وقد أحست بشيء من الراحة حين ادركت أنه قد خفف من قبضته عليها. مد الغلام يده لهما، بالفطائر، فاتجه ريكاردو وأخذهما. كان خلفه رجل وامرأة في أزياء «الأربعاء الكبير» ضمن مجموعة من الرجال يرتدون سترات الشرطة.

وقالت له: «أريد أن ابقى بمفردي، يا دكتور سوان.» كانت قد قررت الهرب منه، من المؤكد أنه لن يلحق بها، خاصة بين رجال الشرطة. بإمكانها أن تستدير هاربة ومن ثم تتلاشى بين الجموع.

ووضع يده على وسطها يقودها إلى حافة الرصيف فنفرت من لمسته تلك، ولكن لم يبد عليه أنه لاحظ توترها ازاء امساكه لها. وعندما توقف لينظر إليها، ساورها الاعتقاد أنه سيأخذها بين ذراعيه. وأحست بالذعر، ولكن كلا... إن هذا لا يمكن أن يحدث خاصة تحت انظار الغلام وذينك المرأة والرجل اللذين يرتفع صوتهما ويسرعان الخطى باتجاههما بسرعة وكأنهما سيكتسحان أي شخص في طريقهما، وعندما اقتربت المجموعة المهرولة منهما، انتقل ريكاردو بخفة واضعاً نفسه بينهم وبين ماريا يحميها.

وقالت له بوضوح، وهي تحدق في وجهه: «أريد أن تتركني بمفردي.»

فقال بعبوس رجل قد صمم على مايريد: «إنك لست بمفردك. فأنا معك الآن.»

قالت: «ولكنني أريد...»

فهز رأسه نفياً. كانت تشعر بالغضب ولكنها لم تستطع أن تنبس بكلمة. وكانت يده ممسكة بأعلى ذراعها تقودها بين الجموع، جاعلاً من جسده حاجزاً بينها وبين تلك الجموع عندما كان يزداد اقترابها منهما.

وعندما وصلا إلى حيث تعرض الجلود، اقترب البائع منهما متحمساً من جديد. وأشار ريكاردو نحو الحقيبة المجدولة التي سبق وعبرت عن اعجابها بها قبل فترة. قالت وهي محتجة: «كلا. هل كنت تراقبني من قبل؟» جبانة لأنها كانت تشعر بالسرور بينها وبين نفسها. ابتسمت وهي تنتقل من بائع إلى بائع، ومن كشك إلى آخر. مستمتعة

بمظاهر الكرنفال، دون أن يساورها أي شعور بالخطر.

وكان هو يخرج نقوداً من جيبه، وحذرته هي قائلة: «إنني لن اقبلها منك.»

فقال: «ليس اليوم. ربما في يوم آخر ستقبلينها.»

كان البائع يلف الهدية تبعاً لطلب ريكاردو.

وتمتمت هي: «لقد دفعت مبلغاً كبيراً.» فارتسمت على ملامحه ابتسامة متفكهة وهو يقول: «إن الرجل لا يساوم في ثمن هدية إلى امرأة غامضة رائعة الجمال.»

كان يراقبها طيلة اسبوع كامل من خلف تلك المائدة في ملهى لاكازاديلفينيتو» إن الغجر أناس غامضون، ولهذا كان يلاحقها. لقد أراد أن يستحوذ على الغموض الذي لمسه فيها أثناء رقصها ذاك.

وابتعدت عن البضاعة الجلدية تلك، ومرت بمنحوتات السيراميك، ووقفت تحدق في الحلى الفضية وهي تقضم الفطيرة.

قال وهو يقف خلفها: «إن الفضة هي أقل من أن تناسبك.» كان يتكلم بهدوء. ولكنها سمعته بوضوح. ارتجفت وأدارت رأسها ترفع أنظارها إليه لتحدق في عينيه البنيتين اللتين كانتا تلتهبان، كان يضع الرزمة التي تحوي حقيبة اليد تحت ابطه بينما كان يقضم فطيرته. وراقبته وهو يأكل، ولاحظت السرور الذي كان يكسو ملامحه. وحولهما كان ثمة مجموعة من الفتيات ممسكة الواحدة منهما بيد الأخرى لكي يبقين على اتصال في وسط تلك الجموع.

وقالت له: «إنني لم آت إلى هنا بصفتي لاجيتانا.»

www.elromancia.com

قال متفرساً فيها: «وهذا ما أراه.»

فأشاحت بأنظارها عنه وقالت: «دعني وحدي إذاً.» مسح يده بمنديل ثم قدمه لها لتمسح يدها هي الأخرى.

وبدا في نظراته ما أدركت منه مبلغ رغبته في الوصول إليها. فخفق قلبها لذلك.

وقالت: «أنا ذاهبة. سأعود إلى فندقي الآن.» الفندق؟ اقترنت كلمة الفندق في مخيلتها بالمخدع... وفي عينيه. تراجعت مبتعدة عنه. هذا ما أراده، علاقة حميمة. راقبها منذ البداية، طالباً...

قال هو ينكرها: «عليك أن تكوني فوق خشبة المسرح الساعة الثامنة.» وارتسمت على شفتيه ابتسامة متابعاً: «والساعة الآن مازالت الرابعة. لم تكوني قد صممت على العودة الآن، أليس كذلك؟»

وفكرت في الهرب، ولكن ساقيها لم تطاوعاها. كانت خائفة من رجل هادىء بين الجموع وفي وضح النهار. سألته بصوت مرتعش: «في الليلة الماضية، عندما كنت أغني، هل كنت تراقبني؟»

قال: «طبعاً.»

كانت تقف هناك والمذياع بيدها، واميليو يعزف على قيثارته بجانبها. كانت تغني بكل اندفاع وحرية الغجر مما جعلها تغيب عمن حولها من المتفرجين. هذا بينما كان ريكاردو هناك يستمع، كان صائداً يتحين الفرص للهجوم على فريسته.

وعادت تقول: «انني اريد أن اكون بمفردي. لقد اخبرتك بذلك. إنني لا أريد أن...»

فقال: «نعم. لقد اخبرتني بذلك. ولكنك كنت تكذبين. لقد اخبرتني عيناك بذلك.»

فقالت: «كلا.» لقد لمست رغبته فيها هناك، على شرفة منزل السيد ديسكانسو مع أنه لم يلمسها. لمس ذراعها الآن ليدفعها جانباً من طريق الجموع، بينما كان رأسه منحنياً على رأسها مما جعلها ترتجف.

وقال: «لقد شعرت بك ترتعشين وأنت ترقصين معي. من أنت يا ماريا؟ ولماذا أنت متنكرة اليوم؟»

فقالت: «متنكرة؟ أنا؟»

فقال: «أعني ارتداءك الجينز وهذا القميص القطني الذي تحاولين ستر جسدك به. تكونين مستورة وأنت واقفة دون حراك، ولكن ما ان تسرعي في السير حتى تكشف لاجيتانا عن نفسها، وعيناك...»

وجمدت لمسته قدرتها على التخلص منه. وكانا ربما على بعد ثلاثين متراً من الساحة حيث سيبدأون بالرقص فيما بعد. كان الموسيقيون يصلحون أوتارهم ويتدربون على مقاطع من الأغنيات.

قالت وهي ترتجف: «إذا كنت تريد لاجيتانا، فتعال الليلة إلى الملهى.» وفجأة شعرت بالخوف من أنها لن تتمكن من الرقص مرة أخرى، دون أن تراقبها عيناه. وتابعت تقول: «ذلك أن لاجيتانا موجودة على المسرح فقط.»

فقال: إنني غير متأكد من صحة ذلك.» وأمسك بطرف قميصها يفرك القماش بإصبعيه وهو يتابع: «إنك تعلمين طبعاً، مبلغ الإغراء الذي يكمن في الغموض. وها هي الغجرية ترتدي الملابس الأميركية، وتعقد شعرها إلى

الخلف... بينما وجهها خالٍ من أية زينة...» كانت عيناه، وهو يتحدث، تنتقلان من ملابسها إلى شعرها ووجهها، وهو يتابع«لاعطر، لا ملابس مغرية. وإذا توجه أحد نحو تلك الغجرية فهي تهرب من أمامه، لماذا خرجت إلى الشارع بهذا الزي؟»

كانت تهز رأسها من الأمام إلى الخلف، منكرة عليه تصوراته تلك رغم وقوعها في شركه. كان خطراً. لقد كان من تأثير كلماته عليها أن شعرت وكأن جسدها يوشك أن يرتجف، ولكنها أدركت، وعيناه ترقبانها، أن أقل حركة، منها قد تحمله على الظن بأنها تحاول غوايته، حدقت في ملامحه القاسية وعينيه البنيتين العميقتين وأدركت نوع تفكيره في أن حركاتها ما هي إلا لاجتذابه.

وسألها: «لماذا خرجت متنكرة؟»

هزت بكتفيها قائلة: «لأستمتع بالكرنفال بمفردي.

قال: «استمتعي به برفقتي.» لا بد أنها هزت رأسها، لأنه قابلها بالمثل، وهو يقول: «نعم. لا يمكنك الهرب يا ماريا. لقد جعلت نفسك غامضة مبهمة، وأنا لا يمكنني أن ابتعد عن كل ما هو غامض.»

يمكنها أن تهرب، بطبيعة الحال. ذلك أن الشرطي يقف في الزاوية بينما الجموع حولها. إنها ستختفي خلال دقيقة واحدة. وسألته: «هل لهذا السبب اصبحت عالم آثار؟»

فقال: «ربما.. ربما هي رغبتي الدائمة في كشف الحجاب عن كل ما هو غامض.»

سألته: «هل تنظر إلى هذه الأمور جدياً؟»

أجاب: «انني انظر إلى تاريخ شعب المايان جدياً. ذلك

انهم تركوا طابعهم على العالم الذي نعيش فيه.» وهز كتفيه وهو يكتسح الجموع الذين حوله، بانظاره متابعاً: «إنها رغبتي في ما يخفيه التراب عني من تاريخ.»

وأمسك بيدها يدفعها من أمام الموسيقيين. رفعت انظارها إليه لترى ابتسامة على وجهه. لقد مضت مدة طويلة على آخر لقاء منفرد لها برجل غريب مما جعلها تفقد تقدير الموقف بأبعاده الصحيحة. كانت يده على ذراعها، وكانت تشعر بالحرارة المنبعثة منه. لم تكن تحب هذا، ولكنه لم يكن في وضع يستطيع معه ان يسبب لها أي ضرر بين هذه الجموع.

وسألته: «إنك مقيم هنا منذ سنوات أليس كذلك يا دكتور سوان؟»

فأجاب: «منذ أربع سنوات.»

قالت: «وهل كشفت النقاب عن كل اسرار شعب المايان؟»

فقال بلهجة تبطن نوعاً من السخرية: «اكتشفت البعض منها فقط، ادعيني ريكاردو يا ماريا، فأنت لست أحد تلامذتي.»

وقالت تسأله: «هل يسوؤك أن تترك هذا البلد؟» ولما رأت حاجبيه يرتفعان بعجب اضافت: «سمعت ان عملك هنا انتهى تقريباً.»

فهز كتفيه لتدرك أنها إنما كانت تتطلع إلى الجانب القوي منه. جانب الرجل الذي لا تحكمه العواطف أو الحاجة. فقد سبق وواجهت تلك الصفتين فيه على تلك الشرفة. وذلك كان السبب في تسببه لها بكل ذلك الضيق. إن بإمكانها مواجهة أبناء جيرتها بكل ما تحويه طباع الغجر

من حدة وكبرياء. ولكن ريكاردو سوان كان رجلاً خارج نطاق خبرتها. كان يتصرف كسكسوني الدم حين تتوقع منه أن يكون لاتينياً، ويتصرف كلاتيني الدم حين تتوقع منه أن يكون سكسونياً.

وسألها: «إذا انت قبلت حقيبة اليد مني هدية، فأي زي سترتدينه معها؟»

فأجابت: «أرتدي زياً لا تستطيع تمييزي فيه.» وعندما شاهدت إمارات الفضول على ملامحه ادركت بأنها أدلت بالجواب الخطأ.

قال: «إن في إمكاني دوماً أن اميزك، يا ماريا؟ هل تريدين أن تأكلي شيئاً آخر؟»

قالت وهي تمشي بجانبه كما لو كانا صديقين: «كلا.» كانت تعلم أن عليها أن تحاول الهرب، ولكن الهرب سيكشف نوعاً من الخوف يعتمل في نفسها دوماً ولا تريد ان يدركه أحد. وتابعت تقول: «لا أستطيع تناول المزيد من الطعام الآن. لانني سأغني بعد ثلاث ساعات.»

سألها: «هل تجوعين نفسك قبل أن تظهري على المسرح؟»

قالت: «لا يمكن الغناء والمعدة مملوءة. سآكل فيما بعد.»

قال: «تناولي الطعام معي بعد انتهائك من الغناء.»

قالت: «اشكرك. ولكنني سبق وارتبطت بدعوة أخرى.»

فقال يسألها: «ممن الدعوة؟ من صديق؟»

فهزت كتفيها شاعرة بالغثيان، ولم تجب.

عاد يسألها: «من هو صديقك، يا ماريا؟»

فأجابت: «هل تتوقع مني أن اجيبك؟» فامسك ذراعها

بشدة وهو يقول: «تعالي. إذا كنت لا تستطيعين تناول العشاء، فلا أقل من أن تأتي معي الآن إلى مدينة الملاهي حيث يلهو الأطفال.»

إن بإمكانها، حتماً، أن تهرب لو أنها حاولت. وما عليها إلا أن تجتاز الشارع إلى شارع آخر حيث تستقل سيارة أجرة، على أن يكون السائق من النوع المتشدّد الذي لن يسمح لرجل بأن يجلس إلى جانبها خاصة عندما ترفض هي ذلك.

لم تكن تريد أن تقوي من علاقتها به. كانت تريده ان يبقى رجلاً غريباً بالنسبة إليها. وكانت يده ملقاة على ذراعها يقودها بين الأعمدة التي تقود إلى ساحة كبيرة حيث السيرك المتجول يقدم حيوانات وعربات لركوب الأطفال.

وأشار إلى ذلك المكان سائلاً: «ما الذي تفضلينه؟»

قالت: «العربات الحديدية.» وبدت لها فكرة الهرب سخيفة، بين كل اولئك الأولاد حولها. ذلك أنه لم يكن شخصاً خرافياً تتصوره في الليالي المظلمة. كان إنساناً خليطاً غريباً من العالم. ولكنه، بالرغم من رغبته الشديدة فيها، فقد كان يعاملها بكل احترام ويتصرف معها وكأنه حارسها وحاميها.

يمكنها أن تمنحه ساعة واحدة، بعد ذلك، لن تراه مطلقاً.

وجلست في زاوية من العربة. وعندما انضم إليها، ابتسم لها فبادلته ابتسامته. كانت تعلم أنه يريد عواطف لاجيتانا المحمومة. وكان في استطاعتها أن تخبره أن لا عواطف محمومة لديها، ولكنها كانت تعرف أنه لن يصدقها. ذلك أنه كان قد رآها ترقص وظن أنه يعرفها تماماً. ولم يكن هو

www.elromancia.com

الوحيد الذي رآها وظن أن المظهر الخداع الذي تبدو فيه، إنما هو حقيقة. لكن اتصاله بها فاق اتصال الاخرين. فقد أخذها بين ذراعيه في صالة الرقص، وذلك الحديث في الشرفة. ووجه إليها إهانة في ذلك الوقت في عرضه الهدايا عليها.

لا بأس، إذ لم يبق أمامها سوى يومين فقط تترك بعدهما مدينة ماريدا إلى الأبد.

وجلست في الزاوية بينما كانت العربة تنتقل لكي تفسح المجال لغيرها. وقالت تسأله: «أخبرني كيف حدث وحصلت على اسم مختلط بين اللاتيني والسكسوني.»

فقال: «الأمر بسيط.» ولكنها كانت تفكر في أنه ليس ثمة شيء بسيط يتعلق به. تابع قوله: «كان والدي كندياً وقابل والدتي اثناء زيارته لكويتو، وهكذا تزوجا وأحضرها معه إلى مونتريال.»

وسألته بالفرنسية ضاحكة: «هل تتكلم الفرنسية؟» ولم تعرف من أين جاءها هذا الضحك الممزوج بالإثارة، تماماً كما يمكن أن تتصرف على المسرح. وعادت تسأله بسرعة يدفعها الاضطراب إلى ذلك: «إلى أين تنتمي؟ إلى الاكوادور؟ كندا الفرنسية؟ إلى شعب المايان الذي تحفر الأرض لتجد خرائبه في مكسيكو؟ ثم انك مرتبط بإحدى جامعات الولايات المتحدة، أليس كذلك؟»

أجاب: «في لوس انجلوس.»

أمسكت أنفاسها. لوس انجلوس؟ لماذا تقرنه دوماً بذلك المكان، بذكريات تعود إلى حياة اخرى؟ وسألته: «هل أنت عائد إلى هناك؟»

فأجاب بجمود: «ربما.»

وتحركت بهما العربة، ليرتفعا عما حولهما. ألقت بأنظارها إلى الشوارع التي تموج بالألوان ومختلف اصناف الجموع. وسألها: «إلى أين ستذهبين بعد أن تتركي ماريدا، يا ماريا؟»

ولما لم تجب، قال بلطف: «سأجد الجواب بنفسي.»

فقالت وقد شعرت برجفة وكأنما اكتشف أسرارها: «ليس ثمة من يتبعني عندما أرحل من أي مكان.»

فقال بلهجة واعدة مهددة: «أنا سأفعل ذلك.» ورأت المدينة فوق كتفه والأولاد في الأسفل. لقد كانت في أمان تام حيث هي. ولبرهة، شعرت وكأنهما يقومان بلعبة على المسرح. إذ هما هنا، فوق المدينة، بينما تتعانق نظراتهما حافلة بالإثارة.

وقالت تغيظه: «أظنك تحب شعب المايان لأنهم رحلوا وانتهوا، ولم يعد في إمكانهم مبادلتك الحديث.» وابتدأت ابتسامة تلوح على شفتيه.

وقال: «ولماذا أنا معجب بك؟»

فقالت: «ربما أنا لا أعجبك أبداً.» وتفرست في خطوط وجهه، وفي عينيه الضيقتين وتابعت: «وانت لا توافقني على ذلك بالتأكيد.»

فهز رأسه إنما دون أن يستنكر قولها هذا. وقال: «وماذا غير ذلك مما تظنين أنك تعرفين عني؟»

فأجابت: «أعرف أنك تريد أن تكون في مركز السيطرة، وأنك لغز غامض.»

عند ذلك ضحك وهو يقول: «أنت اللغز، أيتها الغجرية.»

فهزت كتفيها بكسل وقالت: «إنني لست لغزاً. إنني أغني لأعيش. وأنا ألبس زي الغجر. ولكنك تدرس التاريخ بينما كل شيء حولك يقول إنك غني وذو قوة في عالم اليوم.»

فسألها بهدوء كادت معه تغفل التوتر الذي بدا في كلماته لو لم تكن تنظر إليه: «هل يهمك ثرائي كثيراً؟»

فقالت: «نعم. إنني فضولية.» حسناً، دعه يظن أنها تتوق إلى الهدايا التي يمكنه أن يقدمها لها. ذلك لا يهم في خلال اليوم أو اليومين اللذين بقيا لها في هذا البلد.

وفيما بعد، وهي ترتدي ملابسها المسرحية، لم تكد تصدق ما حدث معها أثناء ذلك النهار. لم تكن متأكدة كيف فعل ذلك، ولكنه جعلها تضحك وهما في العربة. لقد أشار إلى الناس الذين تحتهما وحدثها عن أعياد الكرنفال في الريو. وكانت تغيظه بقولها انه كان في كل مكان بحيث لم يعد يستطيع التمييز بين البلدان.

وقال ضاحكاً: «هذا صحيح تماماً.» ولكنها شعرت بتعب وراء ضحكه هذا. ثم حدثها عن غالاباغو في موطن أمه في الاكوادور، كما حدثته هي ايضاً عن شاطىء البحر المزبد على الدوام والذي يمتد أمام منزل أهلها.

وسألها: «أين يقع منزل أهلك؟»

ضحكت مستنكرة فضوله وهي تقول: «لن أخبرك. وسأكون كالغجرية. على كل حال، سأرحل قريباً.»

قال: «سأعثر عليك.»

فقالت: «لن يمكنك ذلك.» اقترب منها وأمسك بأصابعه خصلة من شعرها. شهقت قائلة: «إياك...»

وأخذ يعالج الشريط الذي يربط شعرها ليتناثر حول وجهها وكتفيها. وقال بصوت اجش: «هذا أفضل.»

فأشاحت بوجهها عنه وأخذت تحدق بالجموع تحتهما. ثم جمعت شعرها بيديها لتربطه. ولكنه كان قد أخذ الشريط لتفلت خصلات شعرها من بين يديها. وأخيراً تركته منسدلاً وهي تتكلم مخفية بذلك اضطرابها.

وقال: «اترين ناحية التل حيث البيوت تتصاعد؟ لقد ذهبت إلى هناك في الأسبوع الماضي. يوجد هناك سوق يشبه الأكشاك في الكرنفال. ولكنها موجودة يومياً. هناك رجال مسنون ذوو أيدٍ ساحرة تنحت على الدوام أشكالاً لأطفال وأولاد ونساء يقمن بالحياكة...»

الأولاد... لقد تحدثا أيضاً عن الأولاد. لقد اخبرها أن لديه ابنتين وابن اخت في الاكوادور. وشعرت بالدفء في صوته وشعرت بأن أولئك الأطفال يحبون خالهم بالتأكيد.

وسألته: «هل تراهم كثيراً؟»

فأجاب: «مرة أو اثنتان سنوياً.»

ولم يعد إلى سؤالها عن مكان ذهابها عندما ترحل عن ماريدا. كانا يقومان بلعبة وعليه أن يعلم أنها هي الرابحة، وأنها ستقدم آخر اداء لها ثم تختفي بعد ذلك. إنه يريد لاجيتانا ولكن تلك المرأة ضباب لا يلمس. كانت الغجرية تتملك روحها قليلاً عندما ترقص. وفكرت في أن ريكاردو وقع في نفس الشرك. وهناك، فوق المدينة، كادت تتمنى لو تقوم بنفس اللعبة التي يريد.

لعبة العشاق.

ثم توقفت العربة، فنزلت منها بسرعة وهي تنظر إليه

حذرة، قائلة: «عليّ أن أذهب.» ثم اندفعت راكضة بين الجموع قبل أن يتمكن من اللحاق بها.

كانت التخيلات هي دوماً أكثر الأمكنة أمناً بالنسبة إليها.

قالت لها أمها وهي تضع حول وسطها الحزام: «إن وزنك ينقص، فأنت لا تأكلين الكفاية.» أغمضت ماريا عينيها ووقفت جامدة بينما أمها تنحني على الثوب. ثم قالت تطمئنها: «سنعود إلى موطننا قريباً جداً. وعند ذلك ستأكل جيداً كما تعرفين.» هل سيكون هو بين المتفرجين هذه الليلة؟ وهل سيكون في استطاعتها أن تنسى عينيه عندما تبدأ الموسيقى.

ستكون هي آمنة فوق المسرح. ولو كانت ستتذكر ريكاردو، فإنها ستتذكر دوماً لحظاتهما تلك في العربة حيث كانت تضحك وتغيظه، شاعرة بالأمان التام.

سأعثر عليك...

قالت لها أمها: «مازال أمامك عرضان آخران، هل أنت متأكدة من أنك ستكونين على ما يرام إذا تركتك غداً قبل آخر عرض؟»

فأجابت ماريا: «طبعاً.» كانت تعلم أن أمها تحب أن تصل إلى البيت قبلهم، لتجهز كل شيء من الأطعمة وتهيئة الغرف، كما تعلم أن «آنا»، زوجة ميكيل ستكون قد قامت بكل ما هو ضروري. قالت لأمها: «قبلي نيتا الصغيرة عني.»

وأخذت أمها تسوي من شعرها المتناثر وهي تقول: «سيكون لأخيك ميكيل وزوجته طفل قريباً، كما أن اميليو لا بد ان يتعرف إلى فتاة وسيتزوجان.»

ابتسمت ماريا وهي تقول: «ان اميليو يعشق كل الفتيات.

وهو الآن يلاحق ابنة اخت السيد ديسكانسو، بينما هي غير شقراء.»

قالت أمها ويداها ما زالتا تسويان من شعرها: «لقد أرسل إليك ورداً مرة أخرى، وكذلك قام ميكيل باستعلامات متحفظة حوله، إن اسمه الدكتور ريكاردو سوان ألانتز وهو رجل ثري.»

لقد سألها، ماس؟ هذا إذا كنت جيدة جداً. وعادت أمها تقول: «وأخبرني ميكيل أنك رقصت معه في منزل السيد ديسكانسو ليلة السبت الماضي.»

ونظرت ماريا إلى ملامح أمها العابسة وقالت: «نعم. لقد رقصت معه مرة واحدة. رقصت ايضاً مع السيد ديسكانسو الذي دعاني إلى تناول العشاء معه ومع زوجته في مدينة مكسيكو.»

فقالت أمها: «لقد أرسل إليك الدكتور ريكاردو ورداً ودعوة مرفقة بها.» وتقدمت ماريا لتقف أمام المرآة التي عكست صورة امرأة محتدمة العواطف ترتدي ثوباً أحمر. شفتان حمراوتان وشعر اسود بلمعة حمراء صارخة. حمراء كالورود التي في المزهرية قرب النافذة.

وقالت: «أرسلي الورود إلى دار الأيتام.» وفي المرآة، رأت ماريا أمها تهز رأسها بعدم القبول وهي تقول: «يوجد معها مغلف. ربما يكون دعوة لك.»

وتنهدت ماريا وهي تقول: «يا أمي العزيزة، إنني اعلم انك تريدين ان اعثر على رجل اتزوجه. ولكن ليس كل امرأة بحاجة إلى زوج.»

قالت الأم: «ولكن عزيزتي ماريا في حاجة لذلك.» كانت

أمها تقف قرب الورود. امرأة رائعة الجمال قد أحبت زوجها بكل عواطفها طيلة حياتهما. ولم تعرف ماريا ماذا عليها أن تقول. إنها لم تعرف كيف ترد على أمها في هذا الموضوع. ولقد كان ميكيل هو الوحيد الذي يتفهم ذلك الأمر. متمت أمها: «ليس بإمكانك أن تمضي حياتك كلها على المسرح.»

واستدارت لتواجه أمها قائلة: «إن ريكاردو سوان يريد ما يريده كل رجل آخر.» وكانت جاهزة للظهور على المسرح الآن، وقد ارتفع رأسها بكبرياء اسباني. كان لها تأثير اقوى من العواطف التي يريد ريكاردو أن يمتلكها.

وقالت تسأل أمها: «لقد حان الوقت، أليس كذلك؟ إن ميكيل سيطلب لنا سيارة.»

واصرت أمها قائلة: «إقرأي الرسالة أولاً.» فأجابت ماريا: «في ما بعد، ربما.»

عندما خرجتا كانت الخادمة عند الباب الخارجي. توقفت ماريا للتحدث إليها: «هل لك أن ترسلي تلك الورود إلى دار الأيتام من فضلك؟»

وسمعت ماريا أمها خلفها، تحتج على ذلك.

وعندما غنت تلك الليلة في الهواء الطلق، غنت لذلك الجمع ولم يكن للجمع ذاك اسم. لم تستطع أن ترى ريكاردو. وحدثت نفسها بأنها في أمان ما دامت الموسيقى وذلك الجمع أمامها.

وساد الصمت عندما انطلق صوتها بأغنية (حب في لشبونة). كانت أغنية توقف أنفاس المستمعين. كان بإمكانها أن ترى المستمعين كخليط من الأشكال خلف الأضواء. انتهت الأغنية وقد تركزت عيناها على رجل يقف

جانباً، أعلى من الآخرين. كان رجلاً فارع القامة قد برز رأسه وكتفاه بوضوح بين الجموع. ولم تشك في أن هذا الرجل، هو نفسه.

وفي أثناء عودتها في سيارة الأجرة إلى الفندق جلست في المقعد الأمامي حيث تجد سعة لثوبها الواسع المثنى لكي تنشره حولها. بينما جلس أخواها ووالدتها في المقعد الخلفي.

وبعد فترة، قال ميكيل: «لقد وجّه الدكتور سوان دعوة إلينا لمساء الغد. وستكون حفلة عشاء صغيرة في لوس اركوس وذلك بعد آخر حفلة لك.»

«كلا.»

قالت ذلك وهي تستدير إليهم، وكانوا جميعاً يحدقون فيها من المقعد الخلفي. وكان إميليو يهز رأسه بينما كان ميكيل وأمها عابسين.

وقال ميكيل محذراً: «يجب أن تكوني عاقلة يا ماريا.»

فعادت تنظر إلى الأمام. وكان سائق سيارة الأجرة يراقبها بنفس نظرة الجميع إليها، هل يريد منها كل رجال العالم، نفس الشيء؟ لماذا ينظرون إليها جميعاً والرغبة تتجلى في اعينهم؟ تمتمت قائلة: «إنه لا يعجبني.»

ومال اميليو إلى الأمام ليضع يده فوق كتفها قائلاً بنفاد صبر: «إن السيد ديسكانسو وابنة اخته بين المدعوين، فلا تفسدي الحفلة يا ماريا. لقد بقي يرسل إليك الورود طيلة الاسبوع.»

فأغمضت عينيها وهي تقول: «إذا كنت تريد ان ترى إبنة الأخت، فاذهب لرؤيتها وحدك. دعني خارج الأمر.»

هدايا، ورود، حقيبة اليد الرائعة التي اشتراها لها... حلبة الرقص... لمساته، وعندما سألته إن كان يشتري لها الماس، وجوابه لها «فقط، إذا كنت جيدة جداً...» يعني بذلك، جيدة في الحب والعواطف.

قالت مرة اخرى: «كلا. لا أريد الذهاب.»

ولم يفه أحد بكلمة في المقعد الخلفي.

وفي الفندق، تبعها ميكيل إلى غرفتها. مشت ماريا نحو النافذة وهي تنزع الأمشاط العاجية من شعرها، لتضعها فوق المنضدة. كان اخوها واقفاً خلفها.

قالت: «أسكب لنفسك كأساً من الشراب.»

ومضى هو يسكب الشراب. كانت الورود قد اختفت من على المنضدة الصغيرة وبقي مكانها المغلف الصغير المكتوب عليه اسمها، ولم تكن بحاجة لقراءة ما هو مكتوب في الداخل، لتعرف انها دعوة لحفلة مساء الغد، وأسرتها ستضغط عليها لقبولها.

وقالت: «ان امي ساذجة.» لم تنظر إلى اخيها وهي تتكلم. كانت تعلم أنه سيخبرها برأيه. وأخذت تنظر إلى أشجار النخيل وهي تتمايل مع النسيم على طول الشارع، وتابعت تقول: «إن امي تظن أن دكتور سوان سيتزوجني. إنها تكاد تسمع أجراس الزفاف.»

فقال ميكيل: «لقد دعانا إلى حفلة العشاء مع نخبة من علية القوم. وسيكون من فساد الذوق ان نرفضها.»

فاستدارت مبتعدة عن النافذة بغضب، وكان يحمل الكأس في يده، بينما بدت في عينيه نظرة عاقلة. وتابعت: «:ننني متعبة. إذهب أنت إذا شئت، أما أنا فلا.»

فهز رأسه بحدة قائلاً: «ليس من المنطق أن ترفضي حضور حفلة اقيمت على شرفك، إذا أقامها رجل غني وذو مقام. لقد دعا أيضاً محافظ المدينة نفسه.»

فقالت وقد اشاحت بنظراتها عنه: «إنك تعلم ماذا يريد. وأنا... أنا لا أميل إليه.»

وتنهد ميكيل وهو يقول: «يا عزيزتي، كوني عاقلة. أنا سأكون هناك وكذلك اميليو. فإذا هو طلب منك أن تتناولي العشاء معه بمفردكما، في المستقبل، لأية مناسبة كانت...»

وابتسم ميكيل وهو يتابع: «عند ذاك، بامكانك أن ترفضي، فلماذا تعتبرين هذه الدعوة في لوس اركوس مع مدعوين آخرين بمثابة مشكلة؟ إن الإعجاب هنا، موجه نحو فنك الرائع.»

ها ان ريكاردو قد اوقعها في الشرك، مرة اخرى. تماماً كما فعل حين رقص معها ليلة السبت الماضي. لم يرغمها، ولكن لم يكن لها خيار في الأمر واليوم، في الشوارع، لماذا سمحت له بالبقاء إلى جانبها طيلة بعد الظهر؟ تأكل معه وتدور معه على اكشاك المعروضات، لتصعد معه إلى عربة الملاهي وهي تشعر بالراحة لأنها بعد ساعتين، لن تراه مرة أخرى أبداً؟

سألت: «هل سيكون ثمة رقص؟»

أجاب: «ربما كان ذلك.»

فازدردت ماريا ريقها، ثم قالت: «إنني لا أريد أن ارقص معه.»

قال: «لقد قال اميليو انك رقصت معه ليلة السبت الماضي في حفلة ديسكانسو... هل حاول..؟»

هزت رأسها نفياً قائلة: «كلا.» كانت تعلم أن ميكيل سيكون إلى جانبها ليحميها إذا شعر بأن ثمة من يسبب لها ضيقاً من ذلك النوع. وتابعت تقول: «لقد رقص معي، وقد تحدثنا. ولكنني... فقط، أنا لا أميل إليه.»

كان من الواضح أن ميكيل يظنها تصنع قضية من لا شيء. قال موافقاً: «حسناً، يمكننا أن ندعي انك اصبت بالتواء في كاحلك بعد الانتهاء من العرض. عند ذلك لا ترقصين ابداً.»

أما عن الحديث على مائدة العشاء، فمن الممكن أن تقوم به إذا هي تجنبت النظر في عينيه، وإذا أجلسها ريكاردو إلى جانبه، فإنها ستستدير إلى الرجل الذي إلى الجانب الآخر. وإذا كانت محظوظة، فهو سيكون السيد ديسكانسو او اخوها ميكيل.

وإذا ما حاول الدكتور سوان الضغط عليها للقبول بدعوات أخرى، فستخبر شقيقها. وهو يعرف جيداً كيف وبأية طريقة يبعد عنها المعجبون. إنه لا يضغط عليها للاهتمام بالرجل كما تفعل أمها، فهو يدرك جيداً أنها لا تريد رجالاً في حياتها، عدا اخويها... حتى ولا اصدقاء...»

الفصل الرابع

نقلت الرسالة إلى ماريا في صينية الإفطار. ورأت المغلف الأبيض في اللحظة التي ناولها الخادم فيه الصينية. وكان مسنداً إلى زهرية طويلة نحيلة تحوي وردة واحدة حمراء.

عادت إلى فراشها ووضعت الصينية على ركبتيها. كانت القهوة ثقيلة، شربتها بتمهل وهي تنظر إلى المغلف. كان اسمها مكتوباً عليه بخط يده، فقد سبق ورأت ذلك الخط الثخين عدة مرات هذا الاسبوع. وهو يعرف اسمها بأكمله. فكيف امكنه ذلك؟ لقد كانت العامة تعرفها باسم لاجيتانا.

كيف علم بانها ستكون في تلك الحفلة ليلة السبت؟ وعرف في أي فندق تقيم، وهذا ايضاً ليس سراً ولكن...

إنني سأعثر عليك...

وضعت فنجان القهوة من يدها. لم يكن أحد يعرف المنطقة التي تسكن فيها أسرة كونسرتا، ذلك أن والدها كان قد أصر على التخفي، واحتفظت اسرته بهذه العادة حتى بعد وفاته. فقد كان ميكيل وزوجته آنا يريدان ان ينشأ اولادهما دون ازعاج التصوير والأخبار عنهم. كذلك أرادت ماريا حياة خاصة بها تماماً بعيدة عن جمهورها. وبينما لم تستطع امها فهم السبب في هذا، فقد فهم ميكيل. كان ميكيل يتدبر الشؤون العائلية والمالية كلياً.

لم يستطع ريكاردو أن يعرف. وغداً صباحاً، ستستقل

الطائرة إلى موطنها بعيداً عن ماريدا. غداً سيتوقف إرسال الازهار إلى منطقة سكنها، إذ أنه لن يعرف إلى أين يرسلها. وفي غضون أيام، أو أسابيع، سيتلاشى فضوله.

لقد كان رجلاً أمضى اعواماً في إرضاء فضوله عن التاريخ، مع أنه ليس بحاجة إلى العمل.

دفعت بالصينية جانباً وهي تتساءل، كم عليه ان يبذل من الجهد كي يجدها؟

فتحت المغلف، لتقرأ... (يمكنني بذل الجهد في أعمال الحفريات كما يمكنني قضاء اوقات عابثة. قابليني الساعة العاشرة عند عربة الفطائر. الملابس المناسبة جينز وحذاء تنس، ويمكنك ربط شعرك بشكل ذيل الحصان. أحضري قبعة للشمس. سأنتظرك... ريكاردو).

إنها لن تذهب طبعاً. فهي ستبقى مسترخية هنا في سريرها، بعد ذلك الاسبوع الطويل من العمل.

من الطبيعي أن تخرج لتشاهد الكرنفال مرة أخرى، مرتدية ملابس سائحة. ولكنه استطاع أمس، تمييزها في هذه الملابس، مع أنها عادة، آمنة في مثل تلك الملابس. دون زينة أو ملابس جميلة... ودوماً كانت تشعر بالرضى لذلك.

كيف امكنه ان يميز لاجيتانا عندما كانت الغجرية هي الحلم على خشبة المسرح؟ هل هو شيء مميز في مشيتها؟ كما قال. «عندما تبدأين بالمشي، عندذلك تكشف لاجيتانا عن نفسها...» هزت كتفيها وهي تلقي عنها الأغطية.

سيسألها هذه الليلة، على مائدة العشاء، عما فعلته أثناء النهار. سؤال عادي، ولكن عينيه ستخبرانها أنه مصمم على امتلاكها.

ماس... إن وجدها جيدة جداً...

لم تجرؤ على الخروج من غرفتها قبل موعد ظهورها الليلي على المسرح. فقد وجدها في تلك الحفلة، وكذلك في الشوارع أمس. وقد أوقعها الآن في شرك حضور حفلة العشاء هذه الليلة، وسيحملها على ادعاء التواء في كاحلها لكي تتجنب ذراعيه حولها.

وارتدت ملابسها بسرعة، الجينز وقميصاً قطنياً. كان الجو حاراً، فالوقت كان أوائل آذار ـ مارس، كما أن الصباح ينبغي ان يكون بارداً. وقد كانت تسمع على الدوام ان جو مدينة ماريدا حار جداً حتى في وقت الشتاء، كان هذا صحيحاً. لو انها الآن في موطنها على شاطىء البحر، أو لو أن في استطاعتها ترك غرفتها الخانقة هذه لتركض إلى الشاطىء وتغوص في المياه. كانت المياه باردة عندما تركت منزلها منذ شهر. وكانت تحب ذلك. تحب أن تشعر بالبرودة تحت حرارة الشمس، والشعور بأنها وحدها. لا بد أن الجو اكثر حرارة الآن. وعليها أن تذهب إلى الشاطىء مباشرة خارج منزلها لتتجنب السواح الذين يملكون بيوتاً على الشاطىء قرب سان جوزيه ديل كابو. ولكنها ستكون هناك حرة، وفي أمان.

هل ستمضي طيلة النهار هنا في غرفتها.

بدأت تشعر بالضجر. وارتجفت لشعورها بأن عليها ان تمضي الساعات الطوال في هذه الغرفة. لقد سافرت امها. أوصلها ميكيل إلى المطار بعد أن أخبرها انه سيجتمع بالسيد ديسكانسو لأجل العمل قبل ان يعود إلى الفندق. وقد سر اميليو لذلك، إذ كان يريد ان ينام هناك. وهذا ما جعل

ماريا تبقى وحدها، دون عمل تقوم به لتشغل تلك الساعات الطويلة.

إداؤها المسرحي، ثم حفلة العشاء... ريكاردو سيتدبر امر جلوس المدعوين طبعاً، إذا شاء ان تجلس بجانبه... سينظر إليها طيلة الحفلة.

ووقفت عند النافذة. هل ستكون سجينة هذه الغرفة طيلة النهار. إن هذا سيجعلها تجن. كان كلام امها صحيحاً، ذلك ان ماريا لم تكن تأكل الكفاية من الطعام اثناء رحلاتها، اذ كانت تعيش على اعصابها فلا، تشعر بالراحة والاسترخاء إلا عندما تعود إلى منزلها.

أليس من السخافة أن تبقى سجينة هذه الغرفة، طول النهار، لأجله؟ أليست ماريدا من الاتساع بحيث تجد مكاناً تذهب إليه فلا تبقى سجينة طوال اليوم؟

ماذا لو ذهبت معه لتتفرج على آثار المايان؟ ما الذي سيحدث؟ لقد تحدث مرة عن سيارة له تبقى هنا على الدوام، وهذا يعني انها ستكون معه في سيارته. وساعة في السيارة بينما يداه على عجلة القيادة، ستكون فيها آمنة كما كانت في تلك العربة أمس. وفي منطقة الآثار سيكون كثير من الناس، التلاميذ الذين تحدث عنهم، وربما تلك المرأة التي تحدثت عن أنه كان يريدها لنفسه.

لم يكن له الحق في ان يسجنها هنا بسبب ملاحقته تلك لها. لن تدعه يوقعها في الشرك. وستخرج إلى الشوارع، انما ليس الى ذلك الشارع بالذات.

وارتدت ثيابها بسرعة لتنزل السلالم ركضاً إلى الطابق الأسفل من الفندق. وفي الخارج، كانت جدران منازل ماريدا

القديمة تعكس حرارة شمس الصباح وجموع الناس. كان اليوم هو الاربعاء الكبير، وهو آخر أيام الكرنفال. كانت الشوارع مليئة بالإثارة، الأزياء البراقة بين الجموع، العروض والزينات الملونة. وفيما بعد سيكون ثمة رقص وعروض رياضية.

لو انه عرض عليها ان تخرج إلى الشوارع لتشارك في الرقص، لما كانت شعرت بأن في ذلك اي محاولة من جانبه للإغواء. وهذا ما جعله يبدو خطراً عليها. فالناس تأتي إلى ماريدا لحضور احتفال الاربعاء الكبير، هذا بينما يقترح ريكاردو سوان الذهاب إلى منطقة الآثار لتمضية النهار بعيداً عن المدينة. لتمضية نهار من الهدوء لفتاة عليها ان تؤدي دورها على المسرح امام الجميع هذه الليلة.

لم تكن آثاره تثير اهتمامها. فقد ذهب التاريخ وانتهى. لو كان قد دعاها إلى تمضية الوقت على الشاطىء لاستطاع اقناعها. ولكنه لم يأت على ذكر الشواطىء التي كانت تبعد ثلاثين كيلومتراً فقط. لقد حلمت به ذات ليلة، الاسبوع الماضي، وشعرت بالخوف وهي تراه يتسلل إلى رقادها.

وركضت في الشوارع مسرعة. لقد أصبحت سائحة مرة أخرى. ولم تنظر في أعين الشبان بين الجموع. لم يكن يهمها امرهم. كانت تعرف كيف تصد شبان وطنها بكلمة صارمة هي «كلا.» ثم ترفض مبادلتهم النظرات، وهذه الأخيرة كانت غلطتها مع ريكاردو حيث انها سمحت لنفسها بالوقوع في شرك مبادلته النظرات من على خشبة مسرح لاكازا ديل فينيتو. ثم رفعت عينيها لتلتقيا بعينيه أثناء رقصهما معاً مما جعلها تتأكد من أنه يريدها.

ما كان له أي تأثير عليها لو أنها كانت قد رفضت مبادلته النظرات. لقد أرادها له، ولكنها لم تكن المرأة التي كان يحلم بها وهو يراقبها على المسرح. كانت المخلوقة التي كانت ترقص وتغني في هالة من الشهوة والغموض، هي امرأة غير موجودة إلا في خياله. أما هي، فهي ماريا كونسرتا الفتاة الطيبة التي لديها أخوها الذي يحميها دوماً ويمنع الرجال من الوصول إليها.

بالنسبة إلى حفلة عشاء مع آخرين... نعم.

ومعاً، بمفردهما، مع ما يصاحب ذلك من حب وملامسات... كلا.

كان يقف قرب عربة الفطائر، مرتدياً سروالاً خفيفاً وقميصاً قطنياً باهت اللون جعله يبدو لاتينياً إلى درجة كبيرة. كان يتكلم إلى رجل مسن متكىء على عصا. وعندما اقتربت من المنعطف، رأت الرجل يضحك يشاركه ريكاردو في ذلك. ثم رآها. وقال الرجل الذي بجانبه شيئاً ثم أسرع لملاقاتها.

وقفت وقد شعرت بالدوار لهذا الاحساس الذي جعلها تسرع إلى ملاقاته بهذه السرعة... لكي يحيطها بذراعيه لتغرق في امواج من دقات القلب، كما حلمت تلك الليلة، لكي يوقظها هذا الحلم من النوم.

كلا، كلا.. إنها لم تحلم. إنها لم تحلم به.

فقال: «ماريا.» ولا شيء اكثر من ذلك. كان اسمها على شفتيه بينماكانت تشعر بحلقها جاف مما جعلها تزدرد ريقها قبل ان تستطيع الكلام. كان ينظر إليها بابتسامة الفوز وكانه كان يعلم أنها ستحضر.

فقالت: «إنني لن... أخرج معك هذا النهار، يا ريكاردو.»

رأت على شفتيه شبه ابتسامة أرسلت الرجفة في يديها.

قال: «ها قد ارتديت الجينز، وشعرك ذيل الحصان ولكنك نسيت القبعة.»

فقالت: «لأنني لست ذاهبة معك...»

قال وهو يضغط على أعلى ذراعها: «بل ستذهبين. يمكنك ان تقومي بألعابك إذا شئت، ولكنك لن تستطيعي خداعي.»

وأصرت قائلة: «أريد أن أتفرج على الاستعراض وألعاب القوى.»

فقال: «لو كانت هذه الأشياء تهمك لاشتركت فيها.»

فقالت: «لقد طلبوني فعلاً لذلك، ولكن ميكيل رفض.»

وأطبقت شفتيها بشدة ثم تابعت: «إنني لا أريد ذلك.»

فقال بلهجة خطرة في نعومتها: «رقصة أخرى للغواية؟ أظهري حركاتك... أماماً وخلفاً... وارمقيني من تحت أهدابك السوداء هذه، ثم اخبريني انك لا تريدينني. ولكن تذكري... إنني أفهم ألاعيبك.»

فقالت: «كلا... إنها ليست كذلك... إنها ليست ألاعيب.»

فقال: «لا، بل هي كذلك. لقد رأيتك وأنت ترقصين. وأنا أراك الآن... ولكنني لا أجد فرقاً. إن رقصة الإغواء المتعجرفة التي تقومين بها، تغوين بها رجلاً... لتأتي بعد ذلك، وقد اتسعت عيناك سذاجة.» وهز كتفيه وهو يقول: «حسناً يا لاجيتانا. سأقوم أنا بلعبتك هذه.»

إنه إذاً، لم يصدقها. لقد تخيل شيئاً في عينيها لم يكن حقيقياً. ما الذي كان في عينيها؟ في مشيتها؟ كان ثمة

إشارات لم تقصده بها ولكنها لم تكن تعرف كيف توقفها.

وأمسك ذراعها بيده قائلاً: «إن سيارتي تبعد قليلاً من هنا.» وأثناء سيرهما كان يحميها من الزحام بيده الأخرى.

وسألته: «أين...؟»

توقف بها أمام عربة تعرض قبعات، حيث اشترى لها قبعة من القش يزينها شريط أحمر يتدلى من جانب واحد. شعرت بها مستقرة تماماً فوق رأسها مما أشعرها بالراحة. وأخذ هو يتفرس في ملامحها بعينين ضيقتين.

قال: «إنه زي جميل.»

فرفعت يدها تحاول خلعها عن رأسها قائلة: «إنني لست ذاهبة معك.»

وقبض على يدها آخذاً أصابعها بأصابعه وهو يقول: «إنه سيكون يوماً شديد الحرارة، مما يجعل السير في شوارع ماريدا لا يحتمل، بينما أنت ستؤدين دورك هذا المساء مرتدية ثوبك الثقيل ذاك.»

فقالت وهي تحك وجنتيها بيدها الطليقة شاعرة بحرارة تخزها بين كتفيها كما لو كان ينومها تنويماً مغناطيسياً. «لا أريد...»

قال: «هناك شاطىء عمومي عند بروغريسو بعد منطقة الآثار بعدة أميال.»

وأخذت هي تتصور الرمال البيضاء التي يمكنها ان تخلع عندها حذاءها لتندفع في المياه الضحلة.

وعاد يقول: «سأريك الآثار في ناحية زيبل شالتون ثم نذهب إلى ذلك الشاطىء. وسنستمتع بهذه الهدنة من العمل هذا الصباح.»

فسألته: «كنت أظن أن المنطقة التي تنقب فيها عن الآثار تقوم في ناحية الجنوب؟»

أجاب: «نعم، إنها لكذلك، ولكنني، بدلاً منها، سآخذك إلى ناحية الشمال حيث يوجد الشاطىء.»

فعضت شفتها ثم قالت: «إنني لا أريد التورط معك. إن ذهبت معك، فلن يحدث سوى أن تريني آثار المايان، وبعد ذلك أرحل بعيداً. ولن أراك بعد ذلك قط.»

قال يذكرها: «إنك ستتناولين العشاء معي هذه الليلة. لقد أرسل اخوك يخبرني بقبولك وأسرتك الدعوة... ماعدا والدتك.»

قالت: «إنها رحلت. سبقتنا إلى الوطن.»

فقال: «إلى...؟»

هزت رأسها قائلة: «لن أخبرك أين نعيش. كما انني لن أرقص معك هذه الليلة كذلك.» ورفعت رأسها قليلاً واستطردت: «انني سأدعي بأنني أصبت بالتواء في كاحلي بعد الرقص على المسرح.»

قال: «إذاً، لأنني سأكون مضيفك، فإن المفروض بي أن أبقى إلى جانبك لأسليك بالنسبة لاضطرارك إلى عدم الحركة.»

فسألته بلهفة: «هل نذهب إلى الشاطىء أولاً؟ هل يمكننا الذهاب إلى الشاطىء قبل منطقة الآثار؟»

فقال ضاحكاً: «هل ظننت أنني سآخذك إلى هناك لألقي عليك محاضرة عن الآثار؟ إنك تتحدثين كالأطفال.»

قالت: «إن لدي عملاً هذه الليلة.»

قال مقطباً حاجبيه: «إنني أشك في أنك تعتبرين ذلك عملاً. عندما تقفين على خشبة المسرح...»

قالت بحدة: «لا تتحدث عن لاجيتانا. وإلا، فتحدث عن شعب المايان. إنني كذلك، لا أهتم بحفرياتك الأثرية. كذلك يمكنك ان تلقي عليّ محاضرة عنها. ألا تلقي محاضرات أحياناً، على الطلاب في الولايات المتحدة؟»

ولكسب الضحك صوته دفئاً، وقال: «لا أستطيع أن أمضي شهوراً مرة واحدة دون إلقاء محاضرة. هيا بنا الآن، فضلاً عن ان هذا اليوم هو عيد الأربعاء الكبير. إنهم في بيرو يسمون أيام الكرنفال «باكلي تاكي.»

سألته: «وماذا تعني هذه الكلمة؟»

قال: «إنها تعني دعنا نلعب.»

سألته: «أتعرف بيرو جيداً؟»

كانت تسأله وهي تحدث نفسها أنها ستقول كلا إن هو حاول إصعادها إلى سيارته.

أجاب: «إنني أذهب إليّ هناك في زيارات قصيرة. ولكن لدي صديقاً متزوجاً من إبنة أحد ملاك الاراضي هناك.»

فقالت: «أهي تلك المرأة الشقراء التي كانت في الحفلة؟»

فقال: «كاتي؟ نعم.» وأشار بيده إلى ناحية الشاطىء في الشمال.

قالت: «انها رائعة الجمال.»

قال موافقاً: «نعم.»

فكرت في انه ربما كان عاشقاً لتلك المرأة الأميركية. ذلك أن الرجال لا يحافظون، دائماً، على قسم الزواج. كذلك بدا على تلك الشقراء أنها غارقة في الحب كما أنها حامل. كان يبدو عليها زهو المرأة الحامل.

ونفت ماريا من ذهنها شعوراً غير متوقع من الحسد. انها

ليست بحاجة إلى الأطفال. وأن يكون لها أطفال، يعني ان عندها زوجاً. ولهذا كانت تفضل أن تدع الرجال بعيدين عن خشبة المسرح أثناء رقصها وغنائها.

وقالت تذكره: «غداً، سأكون قد رحلت.»

فقال ببساطة وكأن رحيلها لم يكن يعني له شيئاً: «دعينا نمضي هذا اليوم أولاً.»

وفكرت هي في الخطر الذي يكمن في قضاء نهار مشمس دافىء كهذا النهار، على الشاطىء. كان رجلاً راقياً، ومثله لن يعتدي على شرف فتاة في أسرتها رجال يحافظون على سمعتها. ربما سيحاول إغواءها بالكلام. ولكن، كل ما عليها فعله هو ان ترفض. وحتماً، هو لن يرغمها على شيء. إنه فقط، رجل كغيره من الرجال ذوي النظرات الوقحة. رجل آخر يظن ان الراقصة هي شخصية حقيقية، وانها تحاول غوايته. لقد تعرفت منذ سنوات إلى رجل سمعت منه مثل هذه الاتهامات وكان ذلك منذ تسع سنوات حين كانت هي في السابعة عشرة بعيدة عن هذا العالم.

منذ لوس أنجلوس. ودالاس.

كانت سيارة ريكاردو من نوع «جيب» دون صوت وذات نوافذ مفتوحة تسمح بتخلل الهواء. وعبس حين خلعت ماريا القبعة عن رأسها.

وقالت: «إن سقف السيارة سيحميني من الشمس.» وحالاً، شعرت بالغضب من نفسها... لماذا تعتذر وكأن له سلطة عليها. واستطردت تقول: «إن الشمس لا تؤثر عليّ أبداً. ليس كصديقتك الشقراء تلك.» وتفرس هو في ملامحها

فترة طويلة قبل ان يقول: «إنني أتساءل عن حقيقة ما تفكرين فيه.»

قالت: «تابع التساؤل، فأنا لا أشارك في هذا.»

انحدرت انظاره من عنقها العاجي إلى صدرها الناهد تحت القميص القطني، ثم قال، ببطء: «وأنا أيضاً لا أحب المشاركة، بالنسبة لنسائي على الأخص.»

فقالت متهكمة: «تهانيّ. والآن، هل سنذهب إلى الشاطىء أم لا؟ إن المقاعد في هذه السيارة شديدة السخونة.»

ولمعت في ملامحه بارقة لعلها الغضب، وظنت للحظة، أنه سيمسك وجهها بيده... ليأخذ منها قبلة عنوة.

وهمست بصوت خشن: «لقد غيرت رأيي. لا أريد الذهاب إلى الشاطىء.»

ومدت يدها إلى مقبض الباب. وادار هو المحرك، ثم مد يده لتمسك بمعصمها.

وقالت بحدة: «دعني أذهب.»

فقال: «إنني منغمس في هذه اللعبة حتى الآن، يا ماريا.»

فقالت: «إنك تؤلم معصمي.» كانت تشعر بالألم في صدرها وليس في معصمها. ولكنها شدت يدها من قبضته وهي تتابع قائلة: «دعني أذهب.»

فقال: «أتركي قبضة الباب اولاً.» فهزت رأسها وهي تشد من قبضتها على مقبض الباب. كانت يدها الأخرى في قبضته فوق حضنها.

قال: «يمكنني ان أسوق السيارة بهذا الشكل طوال الطريق إلى شاطىء بروغريسو، إلا إذا جلست هادئة وتوقفت عن القيام بأساليبك التي لن توصلك إلى شيء.»

قالت وهي تبلع ريقها: «لا أريد أن أذهب إلى أي مكان.» كانت يدها التي يمسك بها فوق حضنها، ترتجف من هذا الوضع. أي غباء جعلها تأتي لتقابله هذا النهار؟ لقد مشت إلى الخطر بقدميها.

كانت يدها ما زالت في قبضته أثناء محاولته السيطرة على عجلة القيادة بيده الأخرى. تطلعت إلى الأمام مباشرة، لترى فتى يعبر الطريق إلى الناحية الأخرى ليوقف ريكاردو السيارة لتعبر ثلاث نسوة أخريات الطريق أمامهما.

وسألته: «هل ستقود السيارة طوال الطريق إلى بروغريسو بالسرعة البطيئة؟»

فقال: «إذا كان ذلك ضرورياً.»

فقالت: «لا أريد ان أذهب معك.»

فقال: «كان يجب ان تفكري بذلك قبل الآن.»

قالت بيأس: «نعم.»

كانت سرعة السيارة قد ازدادت الآن، بعد أن أفسحت له جموع المارة الطريق. نظرت حولها ثائرة. هل تراه مثل والاس؟ تقول له كلمة فيسمع خلافها وفي النهاية لا يقف. ومر برجل شرطة أدار رأسه ينظر بفضول إلى يديهما المتشابكتين المرفوعتين ثم ليرفع يده، أخيراً، بالتحية لريكاردو.

وقال ريكاردو أخيراً: «بما انك لن تصرخي طالبة النجدة، وبما انني لن أسمح لك بتغيير رأيك، فلماذا لا تتركين مقبض الباب ذاك؟»

فعضت شفتها قائلة: «أترك يدي أولاً.»

www.elromancia.com

فقال: «لأكون بذلك مسؤولاً عما يصيبك لو قفزت من السيارة أثناء سيرها؟ لا أظنني سأفعل.»

وعلمت أن لا خيار لها. كان في امكانها أن تبقى على هذه الحال حتى وصولهما إلى بروغريسو متألمة من قبضته على معصمها كصبي يؤدبونه، أو أن تخضع. وهكذا تركت مقبض الباب.

عندئذ، ترك هو معصمها.

لم تنظر إلى وجهه، مع انها كانت تنظر إلى يده على عجلة القيادة. كانت ترى اطرافه دون أن تنظر إليه.

وقال برقة: «لا تعبسي هكذا. إن عندي ثلاث شقيقات وأماً لاتينية عاطفية جداً. وبهذا تتأكدين من أنني معتاد على مثل هذه الانفعالات.»

فقالت شاعرة بعضلات فكها تتوتر: «إنني لا أعبس.»

فقال: «إنه، إذاً، تمثيل جيد منك حتى أنني صدقته.»

غصت بالضحك وهي تقول: «إنني ممثلة.»

فألقى اليها بنظرة دافئة لم ترها منه من قبل، وقال: «إنني أعدك، يا ماريا كونسرتا، بأن أزيح الأحجبة عنك لأعرف تماماً تحت أي حجاب منها تكمن حقيقتك كامرأة.»

قالت بجمود: «قد يكون هذا صعباً. ذلك لأنني راحلة غداً، ولن أدع لك خيط نور لكي تتبعه، ولا دعوة مني لذلك.»

ولأن ذلك اليوم كان هو الأخير من أيام الكرنفال. كان الشاطىء خالياً تقريباً إلا من بعض المواطنين، بعدما ذهب كل السواح ليتفرجوا على الشوارع المزدحمة.

وقال ريكاردو لها وهي تخطو على الشاطىء: «إخلعي حذاءك.»

منذ تلك المناوشات، أصبح ريكاردو دمث الطبع. كان يتفحص الشاطىء خلفها قبل ان يقول لها ذلك.

وجلست على الرمال تخلع حذاءها، ثم ثنت ساقي سروالها الجينز إلى أعلى كي لا يبتل بالماء فيما لو غاصت بين الأمواج.

خلع هو أيضاً حذاءه وجواربه، ووضعها جميعها في السيارة التي كانت متوقفة عند حافة الشاطىء. وقال يذكرها: «أنت سائحة اليوم، بهذا السروال وتسريحة ذيل الحصان تلك.»

ضحكت مسرورة لهذه الفكرة، لتهرب منه مبتعدة داخل الشاطىء. وقبل وصولها إلى الماء، نظرت إلى الخلف بخوف مفاجىء. كان يسير خلفها متمهلاً دون أن يأخذ هربها منه سبباً لمطاردتها.

وفكر هو في ان تصرفها ذاك ما هو إلا غواية منها له. كان يعتبرها غجرية حقيقية، كما أنها لم تحاول من جانبها، إقناعه بشيء مخالف لهذا. أحياناً، عندما كانت تنظر إليه، كانت تفكر في أنه... حسن، ربما كانت تشعر بجاذبية نحوه في اللحظات التي كان يضحك فيها... أو عندما ينظر إليها وكأنما هو معجب بما يرى، متوقعاً أن يراها تقوم في أية لحظة، بعمل يثيره إلى حد يخرج عن نطاق قدرته على الإحتمال. كان يخيفها عندما كان ينظر إليها بهذا الشكل... ولكنها كانت تتساءل أحياناً عما يمكن ان يكون الأمر في ما لو...

ماذا كان يحدث في ما لو جمع بينهما الغرام؟ وماذا كان يحدث لو كانت هي المرأة التي يظن؟ فتجعل من رقصها

رقصة غواية لاجتذابه إلى شركها؟ وركضت نحو الماء لتشعر بدفء مياه المحيط على كاحليها. نظرت خلفها، وجعلتها ابتسامته تفكر في ولع الرجال بمراقبة حركات النساء.

كان يميز طريقتها في السير، وفي الحركة. لقد امكنه تمييزها أمس بين الجموع رغم تنكرها، وهو الآن يظنها تقوم بلعبة لإغوائه، وأنها ستكون عشيقته.

وعادت تسترجع أحاسيسها عندما كان ممسكاً بذراعها، كان ينظر إلى جسدها عندما كانت تظهر الأنوثة وهي غارقة في الأحلام على المسرح. الاغواء... كانت تعتقد بأنها لا يمكن ان تستسلم للاغواء مرة أخرى.

ستكون هذه الليلة هي الأخيرة التي تراه فيها في حياتها. ماذا لو أنها سمحت له بتقبيلها؟ وربما ستسمح لنفسها بالرقص معه. مرة واحدة فقط. وهو سيعرف، عندذاك، كيف يخفي مشاعرهما عن الآخرين... على الشرفة حيث يغمرهما ضوء القمر... يده على ظهرها لتسري الأحاسيس في جسدها... أجزاء من الحلم الذي كانت تحاول إنكاره... فمه الصارم الممتلىء.

وانحنت ثم أخذت تقذف الماء عالياً من البحر. وشعرت بالبلل على شفتيها... فارتجفت وهي تفكر بقبلة منه.

ولكن قبلته ستطلب أكثر مما يمكنها السماح به.

كلا... قبلة واحدة، ثم تهرب منه، ليصبح بعد ذلك، عاشق الأحلام. إن عشاق الأحلام لا يحولون شعور الاثارة إلى كوابيس ليلية. وفي الأحلام، كما على المسرح بامكانها ان تتحرك كيفما شاءت دون ان يستطيع أحد لمسها.

كانت تسير في المياه الضحلة، عندما أمسك بيدها. وكان حولهما بعض الناس. وكانت تعرف انها يجب ان تندفع مبتعدة عنه... تعرف ان تصوراتها عن القبلة هي شيء خطير. ولكن يده أخذت يدها، لم تحاول ان تنظر إلى يديهما المتشابكتين. كان يمكنها ان تشعر برجولته في قبضته تلك.

وقالت له لاهثة: «هل تملك بيتاً في الولايات المتحدة؟»

أجاب: «نعم. ولكنني لا أذهب إلى هناك كثيراً.»

قالت: «أين...؟» سكتت وهي تشعر بالخوف اذ تلمح نظراته الدافئة الممزوجة بالفضول في عينيه، بينما يده ممسكة بيدها.

سألها بهدوء جعلها تغفل عن معنى كلماته تلك لعدة ثوان: «أتحبين أن تزوريني هناك؟»

وحاولت جذب يدها، ولكن قبضته اشتدت عليها. ثم فجأة، رأت نفسها تحدق به، كان يبادلها النظرات وكأنها على خشبة المسرح. قالت: «كلا. توقف عن هذا.»

قال: «أكف عن ماذا؟»

قالت: «هذه اللعبة... إنها... إنني لست لعبة في يدك.»

فقال: «ألست كذلك؟» وتقوست شفتاه فلم تستطع ان تعرف ما إذا كان هذا غضباً ام تهكماً. وتابع يقول: «إنك أنت من يقوم بهذه اللعبة. ونحن الاثنين، نعرف أين ستكون النهاية.»

ورفعت رأسها وعندما تحركت رأت نفسها تراقبه. كان رأسها عالياً وقد تجلى الغضب على ملامحها. وضاقت عيناها. لقد شاهدت ذات مرة، صورتها على شاشة

التلفزيون، ولاحظت مقدار التوتر في مظهرها كما يبدو الآن، وكأنها تقوم بدور تمثيلي.

هذا كان ما يراه هو فيها.

وقالت بصلابة: «أريد أن أذهب الآن.»

الفصل الخامس

كان الازدحام بالغاً في «الاربعاء الكبير.» وفي كل حركة قامت بها ماريا، كانت تسمع اصوات شعب ماريدا ترتفع معبرة عن البهجة العارمة. وكان ميكيل قد عالج الإضاءة بحيث يبدو ثوبها متوهجاً وكأنما يغمره ضوء القمر. وعندما تحركت على وقع قثيارة اميليو، تمكنت من أن تشعر بالاثنين معاً، إيقاع حركاتها، وصدى الموسيقى بين المتفرجين.

كانت قد ظهرت مرات قليلة هناك في الولايات المتحدة، مرة على التلفزيون، ومرة أخرى في جولة في ولايتي كاليفورنيا ونيفادا. لم يكن المتفرجون الأميركيون ابداً مثل هؤلاء الذين كانوا يعكسون تأثرهم بالموسيقى عليها. ربما كانت حرارة العواطف تختلف عند جماهير الولايات المتحدة الأميركية، وبين جماهير المكسيك.

ومهما كان السبب، فقد كان في استطاعة ماريا أن تشعر بسرور المتفرجين مما جعل شعورها بالغجرية يزداد. وتوقفت عن أن تكون ماريا، الفتاة التي يغلب عليها الدم الاسباني المطعم بقليل من الدم الأميركي عن طريق جدتها. وهكذا أصبحت راقصة ومغنية اندلسية تمتاز بكبرياء وسرعة غضب اسلافها. وكانت عواطفها المحمومة والمكبوتة تسيل مع الموسيقى. كانت امرأة واعية لجنسها وأسلافها مزهوة بهما.

www.elromancia.com

كان ريكاردو هناك في ذهنها وهي تلقي بأغنيتها، ريكاردو كما تتذكره هذا الصباح. كان قد اوقف سيارته «الجيب» في طريق العودة إلى ماريدا في ناحية الحفريات الأثرية. كانا قد سارا معاً داخل معبد «السبع دمى.» لم يتلامسا في المعبد بأي شكل كان، ولكن ماريا كانت واعية لكل حركة منه وهو يتحدث إليها. لقد ألقت عدة أسئلة مدركة أنها إنما تريد سماع صوته وهو يجيبها، أكثر مما كانت تريد معرفة الأجوبة عن ماضي شعب المايان. ولكن كلماته حفرت صوراً في عقلها. كما أنه في تلك اللحظات، كان يبدو شمالياً تماماً وهو يحدق في المعروضات، كانت مشاعرها قد اختلطت فيها الأحاسيس والرغبات.

لقد كبحت في ذلك الوقت مشاعرها تلك، لتعود الآن فتطفو إلى السطح. وعندما انتهت الأغنية ليبتدىء الرقص، تحرك جسدها مع الأنغام. عادت بخيالها إلى سينوت اكزكلاكش، البركة ذات المياه العميقة في منطقة الآثار. كان ريكاردو قد سبق واخبرها أن البحيرة الفيروزية اللون قد قدمت للغواصين أكثر من ثلاثين ألف قطعة اثرية. كان يتحدث عن الغموض، وكانت هي تشعر بمعان اخرى وراء كلامه ذاك. وقد ابتعدت عنه عندما ادركت انه لم يكن ثمة احد قريباً منهما، وكان في إمكانها أن تشعر برغبته في اخذها بين ذراعيه ليريها ماذا يعني الحب بالنسبة إليهما.

وقال لها وهما يتبادلان النظرات قرب البحيرة: «لقد اعتاد كهنة المايان أن يغنوا.»

سألته: «ماذا كانوا يقولون في غنائهم؟»

أجاب: «كانوا يقولون: تعالوا يا أولاد.. اسرعوا يا أولاد... اعبدوا الخالق.»

وأثناء رقصها، أصبح في استطاعتها أن ترد على نظرته التي رأتها في عينيه. لقد استطاعت ان ترد عليه في غنائها، دون خوف. وما أن قامت بالانحناءة الأخيرة للمتفرجين، حتى شعرت بأن طيش لاجيتانا وتهورها لم يفارقاها.

في ما بعد، في سيارة الأجرة مع ميكيل واميليو، بدأ ميكيل كالعادة، يبحث في تفاصيل العمل، سائلاً شقيقته: «هل ستغيرين ثيابك قبل الذهاب إلى الحفلة يا ماريا؟» فأجابت: «كلا. إن لاجيتانا، الغجرية، هي المدعوة إلى هذه الحفلة، وهذه ملابس الغجر.»

فقال: «إنه سميك جداً بالنسبة للجو.» وشعرت برنة الغضب في صوته. هزت كتفيها مذعنة لما يريد. وفي غرفتها، وضعت اسطوانة موسيقية، ثم بدأت تجاهد لخلع ثوبها الأحمر. كانت امها عادة، تساعدها في ذلك. كان للثوب سحاب طويل في الظهر كان من الصعب الوصول إليه. ولما تخلصت منه اخيراً، القت به على السرير حيث امتزج سحره بالموسيقى المنبعثة في جو الغرفة. ربطت شعرها عالياً، ثم دخلت الحمام لتغتسل. كانت أثناء ذلك، تغني بصوت خافت وهي تغسل جسدها.

ثم حفلة العشاء الإجبارية، حيث سيعزف هنالك آخرون.. والرقص؟ لقد سبق وأخبرت ريكاردو أنها مصممة على الإدعاء بالتواء في كاحلها.

اختارت من خزانة ثيابها، ثوباً طويلاً أحمر اللون من الحرير يكشف عن ذراعيها. وكان يستر صدرها إلى عنقها.

بينما يكشف عن ظهرها. لم يكن هذا زياً لرقصة الفلامنغو ولكنها سبق وظهرت به على شاشة التلفزيون في الولايات المتحدة. وما زالت تظهر به الآن كزي في بعض المناسبات الاجتماعية. كان ثوباً يذكر المشاهدين بالصورة التي تركتها على المسرح.

كانت تشعر بشعرها المسترسل على ظهرها العاري، وهي تتجه نحو الباب. وذكرها هذا بأصابع ريكاردو على ظهرها عندما راقصها.

وعبس ميكيل عندما رأى ثوبها. وقال: «لا تنسي أن تعرجي.»

ابتسم اميليو وهو يقول: «إنني معجب بثوبك هذا على الدوام. لماذا عليك أن تعرجي؟»

فقال ميكيل باختصار: «إنها لا تريد أن ترقص.» وأخذت ماريا تنظر إلى الأمام من خلال زجاج السيارة وهم في طريقهم إلى لوس أركوس. كان شقيقاها في المقعد الخلفي يتحدثان عن الحفلة. وعندما كانا يوجهان إليها اسئلة ما او تعليقات، لم تكن تجيب. لم يصرا على تلقي اجوبتها. ذلك أنها تكون، غالباً، هادئة بعد الانتهاء من حفلاتها، إذ تظل مستغرقة في اجواء دورها.

غداً، سترحل عن هذا المكان، ولكنها الليلة ما زالت لاجيتانا.

كان الوقت منتصف الليل تقريباً حين دخلت مطعم لوس أركوس، مع شقيقيها. وحالما دخلت الغرفة، وقعت عيناها على ريكاردو الذي هب واقفاً ساعة رؤيتها. وشدت هي على ذراع ميكيل وقد اغمضت عينيها شبه اغماضة، كانت

هذه آخر حفلة لها في ماريدا. وغدا سيكون نهاية أيام الكرنفال حيث ستترك هي ماريدا وريكاردو.

وشعرت بنفسها وكأنها تنزلق على أرض الغرفة. وسارت في أثر رئيس الندل ويداها على ذراعي شقيقيها. وتوقف الحضور عن الحديث حين مرت. واعاد إليها الصمت الذي ساد الحضور، مشاعرها وهي على خشبة المسرح.

تمتم ميكيل: «تذكري كاحلك.»

أجابت دون أن تنظر إليه: «نعم.»

تقدم ريكاردو يمسك الكرسي لها لكي تجلس. جلست وهي ناظرة إلى الأمام، وعندما احتكت يده بظهرها العاري لم تكد تشعر بشيء.

جلست إلى يمين ريكاردو. بينما ميكيل جلس أمامها. وجلس اميليو إلى جانبها وإلى يمينه ابنة اخت السيد ديسكانسو. أما باقي المدعوين فكانوا السيد ديسكانسو نفسه، محافظ المدينة وزوجته، الدكتورة كاثرين جينان عالمة الآثار وزوجها الأسمر الوسيم جوان كورسيكا الذي كان قد وصل من باريس بعد ظهر ذلك اليوم.

سمعتها ماريا تقول للمحافظ: «لقد تزوجنا في شهر آب الماضي، وكان من حسن الحظ أن حضرنا احتفالات الكرنفال هنا في ماريدا.»

ورأت ريكاردو يعبس وهو يسمع صوتها من آخر المائدة. هل كان صحيحاً أنه كان يريد تلك الشقراء لنفسه؟

سألها بهدوء: «بم تفكرين؟»

وأخذت تتنقل بنظراتها لتحجب أي شيء ممكن ان يراه.

لقد تعمد تنظيم أماكن جلوس المدعوين بنفسه، اميليو إلى جانبها ليركز مشاعره على فتاته الجميلة. وزوجة المحافظ على يسار ريكاردو، وقد بدا اعجابها بميكيل الذي كان إلى جانبها. هذا كله جعل ريكاردو وماريا بمعزل عن الآخرين. وعندما حملت نفسها على النظر إليه، شعرت وكأن سلكاً كهربائياً يسري في ظهرها.

وعاد يسألها: «بم تفكرين؟»

فأجابت: «أفكر في أن أيام الكرنفال ستنتهي هذه الليلة، ولا شيء غير ذلك.»

فقال: «هل عليّ أن اصدق ذلك؟»

فقالت بهدوء: «يمكنك أن تصدق ما تريد، فتلك هي العادة في المسارح، إذ يقرأ الجمهور ما يريدون في حركات الفنانة.»

فقال: «وهل هذا اداء مسرحي؟» وانحدرت نظراته إلى صدر ثوبها المقفول، ثم انتقلت إلى الحلقات التي تظهر بها على المسرح والتي ما زالت في اصابعها.

لاحت على شفتيها ابتسامة الغجرية وهي تقول: «إنه كذلك طبعاً. يجب أن تخبرني إذا كان الإداء جيداً.»

رفع كأسه نحوها بشكل تهكمي متمتماً: «إنك لست بحاجة إلى جواب لهذا، يا لاجيتانا.»

رفعت هي كأسها إلى شفتيها ورشفت منه قليلاً، كما فعل هو.

نظر إليها قائلاً بصوت منخفض: «أرقصي معي.»

قالت: «هل نسيت الألم في كاحلي؟» ولم تكن متأكدة من أنه سمعها، وإن لم يبد هذا مهماً.

فقال وهو ينهض واقفاً ويمد يده إليها: «إنني لم أنسَ شيئاً.»

وتحركت ذراعها... وألقت يدها في يده وهي تضع كأسها جانباً وتنهض ببطء وكأنها تسير على إيقاع موسيقى بطيئة. وقفت وهي تتنفس بعمق. وضع يدها على ذراعه، ثم استدار متوجهاً نحو حلبة الرقص.

وتصلب جسدها وهو يمد ذراعيه ليعانقها تحضيراً للرقص. وقال بلطف: «لقد ابتدأ الرقص يا ماريا. هل أنت مستعدة؟»

شعرت أنها، وريكاردو، على خشبة المسرح، بينما بقية الحضور حولهما. وقالت: «إن تمهلوا قليلاً قبل التصفيق، فسيكون مشهداً جيداً.»

فقال: «أطمئنك إلى أنهم سيفعلون ذلك.»

كانت الغجرية هي التي دخلت بين ذراعيه، لقد كانت تعتبر نفسها على خشبة المسرح تؤدي دورها بأمانة. إن هذا رقص عادي لا بأس إن هي اسلمته قيادها في أثناءه. ويمكنها أن تبادله النظرات بينما الأنغام تملأ الجو. قادها إلى الحلبة، باحترام وتحفظ اسبانيين. وكانت عيناه، إذا ما التقتا بعينيها، تتدفقان بالعاطفة المحمومة، فتتجاوب معها لمساته، ليشعرها ذلك برغبته العارمة رغم كل تحفظ.

عندما توقفت الموسيقى، تركها من بين ذراعيه ليبقى جسدها مرتعشاً.

وقال لها بالاسبانية: «شكراً يا سينيوريتا.»

أجابت: «شكراً يا سنيور.»

وقابلهما شقيقها ميكيل وهما في طريق العودة إلى

المائدة. وانحنى لهما وقد بان الغضب في عينيه إذ التقت نظراته بنظرات شقيقته، وقال آمراً: «فلنرقص يا ماريا.»

شعرت ماريا بيد ريكاردو مرة أخرى على ظهرها وهو يدفعها بين ذراعي شقيقها، ليبتعد بها هذا دون أن تتمكن من النظر خلفها، ولكنها ظنت أنه لم يعد يراقبها، إذ عاد إلى المائدة بين ضيوفه.

وقال ميكيل بغضب: «هل كاحلك أحسن؟» فهزت كتفيها وهي تتبع خطواته في الحلبة. وقال لها: «أية لعبة تلعبينها؟ أتعرفين ما الذي يريده منك؟»

وأشاحت بوجهها عن وجه أخيها الذي بدا عليه الإتهام. ولوحت لها امرأة تجلس على إحدى الموائد، فابتسمت لها ماريا، ولم تجب عن سؤال أخيها.

عاد أخوها يقول: «لقد طلبت منك أن تدّعي ألماً في كاحلك، بعد أن قلت إنكِ لا تريدين الرقص معه.»

فقالت بصوت أجوف: «هذا لا يهم فأنا راحلة غداً. لقد قلت بنفسك ان ليس ثمة ضرر من التحدث أثناء العشاء، وكذلك من رقصة أو اثنتين.»

تصلب فكه وهو يقول: «إنه يريدك.»

فهزت كتفيها قائلة: «إنه ليس الأول، كما قلت أنت.»

وأدارها ميكيل ليتفاديا الإصطدام مع شاب وعروسه يرقصان، وهو يقول: «لم أتوقع منك تلك النظرات التي كنت توجهينها إليه، وقد فهم هو الدعوة.»

فهزت رأسها قائلة: «إنني لم افعل ذلك.» ولكن تسارع دقات قلبها أخافها.

وعبس ميكيل في وجهها، وهو يتطلع إليها بنظرة ثاقبة،

ثم قال: «هل هذا الرجل مختلف عن غيره بالنسبة إليك؟ هل لديك شعور خاص نحوه يا ماريا؟»

فقالت وهي تعض على شفتها: «كلا. كلا.» وكادت أن تتعثر لولا أن أمسكها من ذراعها. وقال: «سأتحدث إليه.»

قالت وقلبها يخفق: «كلا. كلا يا ميكيل ما دمنا راحلين غداً. هذا لا يهم. إنني...»

فقال: «لكنه قد يتبعنا.»

فهزت رأسها قائلة: «كيف يمكنه ذلك وهو لا يعرف أين نسكن؟»

قال: «ربما ستخبرينه أنت إذا طلب منك ذلك. لقد راقبتك وأنت ترقصين معه، ربما تريدين منه أن يلحق بك.»

قالت: «كلا.» ولكن ميكيل لم يبد عليه أنه سمعها. وفجأة، تجهمت ملامحه وقال بصوت أجش: «إذا كان الأمر كذلك يا ماريا فإنني سأتحدث إليه.»

واذا هو تحدث إلى ريكاردو، فسيقول له بكل وضوح ان ماريا كونسرتا لا يلاحقها إلا رجل شريف القصد.

قالت بحدة: «ميكيل. إنني لا أريد زوجاً. إنني لا أريد أي رجل.»

ولأول مرة، ينظر إليها بشك.

وصل الطعام في اللحظة التي أعادها فيها ميكيل إلى مقعدها. أدركت أنها كانت حمقاء. لقد رقصت معه وكأنها ترقص على المسرح، لتبادله النظرات الواعدة دون كلام. كان ريكاردو رجلاً يريدها لليلة. لقد أشار إلى أنه سيقدم إليها الماس إن كانت جيدة جداً.

www.elromancia.com

وكان وجهها يشتعل وهو ينظر إليها قائلاً: «ما هي الأفكار التي جعلت وجهك يبدو بهذا الشكل؟»

قالت: «لا شيء.»

ملأ كأسها مرة أخرى. وشرب عندما شربت هي، ثم قال: «سنرقص مرة أخرى عندما تعزف الموسيقى.»

فقالت: «لا أريد أن ارقص مرة أخرى.» لكنها أدركت من عينيه أنه لم يصدقها.

لقد كان في ملابس السهرة هذه الليلة. ولكنها كانت ما زالت تراه ريكاردو العادي الملابس الذي كان معها بعد الظهر. لقد كان في إمكانهما أن يرقصا في تلك المنطقة الأثرية بجانب البحيرة العميقة القديمة، لو أنها سمحت لموسيقى التاريخ بأن تعزف في مشاعرها. لقد كان الخطر الحقيقي هناك، حيث لا يراهما سوى الأشباح.

وارتشفت الشراب شاعرة بخفقات قلبها تزداد.

وسألتها زوجة المحافظ من الجانب الآخر للمائدة: «هل سترحلون الآن بعد ما انتهت أيام الكرنفال؟»

فأجابتها ماريا وهي تشعر بالسرور لتحويل نظراتها عن ريكاردو: «نعم. وسنستريح في منزلنا عدة اسابيع قبل أن نبدأ العمل بالعقد التالي.»

وعادت تسألها: «لقد فهمت أنكم تعيشون على شاطىء البحر.»

فأومأت ماريا برأسها موافقة.

فقالت المرأة بازدراء: «أهو سر؟ لقد قرأت ابنتي في مجلة أن ليس ثمة من يعرف أين يوجد منزلكم.»

ومع أن المرأة كانت مصرة على أن تعرف، فإن ماريا

رفضت أن تكشف لها عن مكان منزلها. فهذه لم تكن المرة الأولى التي تتبادل مثل هذا الحديث مع الآخرين، مما جعلها تعرف كيف ترد السائل بأدب. وهذه المرة كانت تعرف ان ريكاردو مرهف سمعه لما تقول، متذكرة ما سبق وقال من أنه سيعثر عليها أينما كانت.

وتدخل ميكيل في الحديث، يساندها بقوله لزوجة المحافظ: «إن عندي طفلة. وقد اتفقت وزوجتي، على ان ننشئها نشأة عادية بعيدة عن الأضواء. كما أن ماريا تجهد نفسها في العمل وتحتاج إلى الراحة بعد فراغها.»

وسأل ريكاردو ماريا: «ماذا تفعلين في أوقات فراغك؟»

قالت وهي تزيح طبقها: «إنني امضي أوقاتي مع أسرتي، خصوصاً ابنة أخي. كما أنني أقوم بالتدريب مع اميليو.»

فقال: «حدثيني عن ابنة أخيك.»

واسترخت قليلاً وهي تحدثه عن ابنة أخيها البالغة من العمر خمس سنوات، وآخر مغامرة لها حين صممت على أن تقوم بالغناء والتمثيل بين اطفال القرية مصحوبة بصديق صغير ليعزف لها على القيثارة.

فسألها متفكهاً: «إنها، إذاً، ليست طفلة عادية.»

فابتسمت بدورها وهي تجيبه: «ليس تماماً. ذلك أننا نقوم بتدريباتنا في غرفتنا، وذلك بحضور الطفلة نيتا التي تحب أن تتفرج علينا. إنها طفلة فاتنة متقلبة المزاج، ربما لأنها مدللة، مع ان ميكيل وزوجته في منتهى الصلابة معها أحياناً. ولكنك تعرف، لقد كنا دوماً أسرة موسيقية بدءاً من أبي، وكذلك نحن نشأنا على ذلك إذ كنا نعمل معه في الحفلات.»

وضع كأسه من يده وهو يقول: «وطبعاً، ليس للقرية التي تقيم فيها الطفلة نيتا حفلاتها الغنائية، أي إسم.»

قالت بشبه ابتسامة: «هذا صحيح. إنها قرية دون إسم.»

فقال: «ولكنك سترقصين معي مرة أخرى؟» فأجابت وقد علا خفقان قلبها: «الليلة، نعم. ولكنني راحلة غداً.»

قال: «ولكنك ستبدأين العمل في مدينة مكسيكو الشهر القادم. أليس كذلك؟»

ابتعلت ريقها ثم سألته: «وهل ستكون هناك؟»

أجاب: «ربما.»

ولكنها لم تصدقه. إنه لا يدرك مقدار الجنون في أن يلاحق رجل مثله فتاة أعجبه رقصها على المسرح.

وعادت الموسيقى للعزف، فوقف يمد يده إليها. وانسابت معه إلى الحلبة. لم يكن ثمة طريقة تكبح فيها جماح نفسها. كان ميكيل على حق، فهذا الرجل كان خطراً عليها. ويجب ألا تتبادل النظرات معه أثناء الرقص. إنها تحس بيده على ظهرها وبحرارة جسمه الذي لم يكن يبعد عن جسمها بأكثر من سنتمترات قليلة.

لم تكن تريد قرباً كهذا منه. ولكنها لم تستطع أن تكبح أحاسيسها وهي بين ذراعيه. لو أنه مر بيده على ظهرها العاري، لأشاحت بعينيها عن عينيه. ولكنه كان شديد الحرص على عدم تجاوز حدوده في عناق المراقصة العادي. نظراته فقط... وتلك الحرارة المنبعثة من جسده، هي ما بعث التوهج إلى وجهها وسائر أنحاء جسدها.

وتمتم: «إن الجو أكثر إنعاشاً وبرودة على الشرفة.» وأخذ يستدير بها بخفة، وأدركت هي أن لرقصه معها هدفاً،

وأنهما يتجهان بشكل غير مباشر ناحية الأبواب المفتوحة حيث هواء الليل البارد، وعندما استدار مرة أخرى، لمحت اثنين يرقصان وراء الأبواب تلك التي تقود إلى الشرفة.

فقالت كاذبة وهي تحدق فيه: «لا أشعر بالحر.»

قال: «ولكنني أنا أشعر بذلك.»

فابتعلت ريقها. ونظر إليها هو نظرة ذات معنى جعلتها تعض شفتها وهي تنظر حولها.

قال محذراً: «إذا كنت تفكرين بالتواري عني، فإنني سأقبلك قبل أن تقومي بذلك.»

قبلة واحدة... وأخذت تتخيل قبلته كما سبق وتخيلتها على الشاطىء. كان في ذلك الوقت، ممسكاً بيدها. والآن، ها هي ذي تلقي بيدها في يده وهو يراقصها.

وقالت تحذره: «لن تكون هذه الشرفة مختلفة عن تلك التي في حفلة السيد ديسكانسو. أنا لا أريد...»

قال وهو يديرها بيده يقربها من تلك الأبواب: «إنها أفضل من لا شيء. لقد سبق واخبرتك تلك الليلة بأنني أريدك.»

قالت: «وأنا...»

وأحنى رأسه قائلاً بصوت خافت: «إن عواطفك التي كنت تكبتينها أثناء ارتدائك زي السائحة، تلك العواطف تحرقني الآن.»

فهمست: «ولكن ثوبي هذا هو زي خاص، كذلك.»

وقادها خلال الأبواب المفتوحة. وشعرت بنسيم الليل البارد يداعب ظهرها العاري.

وقال وهو يتنفس بعمق فوق شعرها: «هوذا أنت نفسك الآن، هكذا أحلم بك دوماً.»

أين ذهب بقية القوم؟ لقد كان هناك آخرون يرقصون على الشرفة، ولكنهم اختفوا الآن. كانت انفاسه في شعرها، ويده على ظهرها. شعرت بالتوتر. وشدت نفسها إلى الخلف، فتركها من عناق المراقصة. وسقطت يدها على صدره.

همست وقد بان الخوف في نبرات صوتها: «لقد كنا نرقص. لا أريد هذا بل أريد الرقص.»

فقال: «سنعود إلى الرقص.» كانت يده التي تمسك بيدها، مشتبكة الآن بشعرها بلطف. ولم تعرف ما إذا كان هو الذي دفع رأسها إلى الخلف أم أنها هي التي فعلت ذلك. احتوى وجنتها بيده. وابتلعت هي ريقها وقد تحركت أحاسيسها تحت يده. كما أن تنفسها بدأ يرتجف.

سألته: «ماذا ستفعل؟»

أجاب وأصابعه تتخلل شعرها مرسلة الأحاسيس في جسدها: «قبلة. أريد القبلة التي حلمت بها أياماً.»

قالت متوسلة: «قبلة واحدة فقط.» وفكرت، فلتكن قبلة للذكرى فقط.

ولكنها لم تكن تدرك أن القبلة تستلزم كل هذا البطء والملامسة. لقد تخلل شعرها بأصابع يديه الاثنتين وهو يقترب بوجهه من وجهها ببطء أثار مشاعرها. ووضعت يدها على صدره تبعده عنها، وشعرت بالفوضى تغمر ذهنها... من حسن حظها أن ميكيل في الداخل، لكي يسرع ويخلصها لو أنها بقيت هنا مدة أطول.

نظرت إليه ولسان حالها يستحثه... هيا قبلة واحدة قبل أن يأتي ميكيل... قبلة واحدة فقط..

همس وهو يقبلها: «اغمضي عينيك.» ولكنها بقيت تحدق

في عينيه. وكانت يداه مازالتا في شعرها. وهمس قائلاً: «إنني أعشق شعرك هذا.»

كانت يداها على صدره. تصدانه عنها، فتشعر بضربات قلبه تحدثها عما يمكن أن يكمن في عينيه لو أنه فقط رفع أهدابه الكثيفة تلك ليراها. وهمس بصوت أجش: «ماريا.. ما الذي تفعلينه بالرجال؟»

مالت بجسدها، وصرخت برعب ولكن صوتها تلاشى من تلك القبلة. شعرت ببرودة الحجر على ظهرها. إنه الجدار الذي كان ريكاردو يقترب منه ليحشرها به. كانت ملامحه والطريقة التي كان يتقدم بها نحوها، تشبه تقدم الفهد نحو فريسته، بينما التصقت هي بالجدار حيث لا مهرب من قبضته، ثم وصل إليها. ولهثت قائلة: «أريد أن أدخل إلى القاعة... إنني...»

وقال يحذرها مزمجراً: «كفي عن ألاعيبك الآن. إنك تريدين نفس ما أريد.»

حاولت أن تقول شيئاً، لتصدر عنها شبه حشرجة. كانت يده على خصرها، واليد الأخرى في شعرها وهو يقترب بوجهه من وجهها. بينما كان جسدها يرتجف متوتراً في نفس الوقت.

كلا...

كانت بين ذراعيه الآن، وكانت تلهث... وأرادت أن تصرخ، ولكن الكلمات لم تخرج من فمها. حاولت أن تنظر إليه، ولكنها لم تر شيئاً وهي تشعر بالدنيا غائمة حولها. ولكنها ما لبثت أن تنبهت إلى شدة التصاقه بها وهو يهمس بكلام لم تستطع أن تسمعه لعلو ضربات قلبها.

وفجأة، أدركت أن هذا ريكاردو، وأنهما واقفان في الشرفة حيث سيأتي في أية لحظة، لينقذها من طيشها وحماقتها. وحاولت أن تصرخ مرة أخرى، ولكنها لم تستطع، لقد سكتت الموسيقى وساد الصمت، ولكن صوتها كان لا يزال مختنقاً متحشرجاً.

وفجأة، عاد تنفسها في شهقة يملؤها الرعب. شعرت ببرودة الليل على ذراعيها وفي ظهرها، وبيديه تضغطان على ذراعيها وهو ينهرها بصوت خافت: «كفي عن ذلك، يا ماريا. افتحي عينيك.»

كانت عيناها مغمضتين من الرعب دون أن تعي ذلك. وفتحتهما. ورأت امامها ظلاً أسود هو ريكاردو. وتحولت أنظارها إلى يمينها حيث الممر نحو الباب والناس الذين في الداخل.

قال لها: «إذا أنت ركضت هاربة، فسألحق بك.»

وتجمدت في مكانها وقد امسكت بأصابعها تنورتها.

وقال عابساً: «إنك خائفة، مذعورة. لماذا لم تخبريني؟ لماذا جعلتني أظن... هل تراك ظننت أنني سأسبب لك ضرراً؟»

أشاحت بأنظارها عنه. وابتلعت ريقها مرتين بينما كان لا يزال منتظراً جوابها. وهمست قائلة: «ليس تماماً.»

قال: «هل يعرف أهلك أنك تصابين بهذا الرعب إذا لمسك رجل؟» وعادت الرجفة تتملكها. لقد كان ريكاردو أمامها. لقد قبلها ولكن القبلة تغيرت بعد ذلك، لتفقد السيطرة على نفسها. ذلك لأن نفس الشيء كان قد حدث منذ مدة طويلة ولم تكن تعرف، حينذاك، الخطر من الابتسام والسماح للأحلام العاطفية بأن تتحقق.

عاد هو يسألها: «هل تعلم أسرتك بأن الرعب يتملكك إزاء لمسة الرجل؟»

قالت: «إنني لست...»

ترك هو ذراعيها وتراجع إلى الخلف، ثم قال: «إن لك حركات جهنمية على المسرح مما يدع مجالاً للرجل بأن يظن أنك ترغبين به كما يرغب هو بك.»

توسلت إليه قائلة: «دعني أذهب، أرجوك.» ومضت مدة طويلة دون أن يقول شيئاً. أرادت أن تطلب منه إطلاق سبيلها، ولكنها خشيت من العبوس الذي بدا في عينيه.

قال: «اعدك ياماريا، بأن لا أسبب لك أي ضرر.» ولم يلمسها بيديه، ولو فعل لشعر بارتجافها. أحنى رأسها ثم قبلها ببساطة ورقة على وجنتها.

عندما تراجع إلى الخلف، ابتلعت ريقها، وأرادت أن تشيح بأنظارها عنه ولكنها لم تستطع، لم تستطع أن تتحرك كما أنها لم تستطع أن تتكلم. لقد كانت ترتجف طول الوقت وكأنها في السابعة عشرة من عمرها.

قال: «ستخبرينني غداً سبب كل هذا الرعب الذي تشعرين به.»

عادت الموسيقى تعزف في الداخل. ولم تكن قد شعرت بانقطاعها منذ فترة. ولكن، ها هي ذي تسمعها الآن.

أجابته: «كلا، فانا راحلة غداً.» وكان الحضور في الداخل. ربما كانت تتصور صوت ميكيل يتكلم بينما كان يقترب من الشرفة. ربما كان يرقص. وقد يكون فكر في تبادل رفيقة الرقص مع ريكاردو، وعند ذلك تصبح في أمان.

قال ريكاردو عابساً: «صباحاً؟ إن طائرتك ستغادر عند الظهر، و...»

سألته: «وكيف علمت بذلك.»

أشار بيده بغضب، دون أن يجيب. اقشعر جسدها لهذا، تابع هو قائلاً: «إذا لم تقابليني الساعة التاسعة في مطعم فندقك، فستريني في الطائرة معك. إنني سألحق بك. وعندما تبدلون الطائرة في مدينة المكسيك فستريننني في تلك الطائرة ايضاً.»

إذاً فسيلحق بها، وهذا سهل عليه. سيلحق بها من طائرة لأخرى إلى أن تصل إلى منزلها حيث تظن أنها ستكون في مأمن. وكم كانت حمقاء إذ ظنت ذلك وهذا الرجل واقع تحت تأثير اغرائها. هل نسيت ذلك الدرس المر منذ سنوات حين هربت من لوس انجلوس.

«ماريا؟»

ردت عليه بالإيجاب قائلة: «نعم، غداً الساعة التاسعة.»

لقد كانت تكذب. إنه دفاع الغجرية.

الفصل السادس

قالت الطفلة: «دعينا نرجع يا ماريا.»

أجابت ماريا وهي تضم الجسد الصغير اليها: «لا بأس.» ورفعت يدها تمسك بسلّم القارب الراسي قريباً منها، ثم سألتها: «هل أنت جاهزة الآن، أم انك تريدين أن تستريحي قليلاً في القارب؟»

فهتفت نيتا: «أريد أن أسبح.» كان شعرها الأسود ينزل في حلقات حول وجهها. وكانت ما تزال مبتدئة في السباحة، ولكنها كانت تعشقها، مرتدية سترة النجاة بينما عمتها بقربها.

واحتضنتها ماريا بسرعة، ثم قالت: «حسناً، تعالي إذاً.» وانقلبت على ظهرها، ثم سبحت ببطء نحو الشاطىء.

منذ رجوع ماريا من ماريدا، منذ أسبوع وهي تذهب للسباحة مع نيتا الصغيرة. ومنذ ذلك الحين، وهي تلمح الغيظ في عيني ميكيل كلما نظر اليها. لقد أصابها الجنون في ماريدا، وهذا كل ما كانت تستطيع أن تفسر به تصرفاتها وما جرى لها هناك. لقد كان ميكيل على حق، إذ ان الذنب كان ذنبها، اذ سمحت لريكاردو بأن يقبلها بتلك الوحشية على شرفة مطعم لوس أركوس. وتلك الطريقة التي رقصت بها معه اذ تعلقت عيناها بعينيه بكل وقاحة. لقد لاحظ ميكيل ذلك، كما انه سبق وحذرها. كانت تعرف ان تلك كانت رغبة جنونية! لكن لا بأس بذلك أثناء الرقص. كانت تعلم جيداً انه كان سيقبلها على الشرفة.

www.elromancia.com

وعندما رقصت معه هناك، كانت تعرف.

حقاً انها وقعت في شرك الرقص معه في حفلة السيد ديسكانسو، ولكن كل خطوة قامت بها بعد ذلك، كانت بمحض اختيارها. لماذا سمحت له بأن يصعدها إلى العربة في مدينة الملاهي تلك؟ لماذا ذهبت للقائه عند عربة الفطائر في شوارع ماريدا أثناء «الأربعاء الكبير»؟ لماذا بقيت صامتة عندما مرا بجانب رجل الشرطة وهما في السيارة ممسكاً بمعصمها يمنعها من الحركة فلم تحاول أن تصرخ؟ هذا إذا كانت حقاً تريد أن تتحرر منه؟

صحيح انها كانت متضايقة، ولكنها كانت تعلم، عندما ذهبت للقائه انه سيحاول، بطريقة ما، أن يمضي النهار معها. وقد ذهبت دون خوف، معه وان كانت تشعر بشيء من التوتر فقط، وأثناء وجودهما على الشاطىء في بروغريسو سمحت له بأن يمسك بيدها. كما انها سمحت لنفسها بأن تتخيله يقبلها. وعندما نصحها ميكيل بأن تدّعي ألماً في كاحلها لكي تتجنب الرقص معه، رفضت هذه الفكرة وبدلاً من ذلك، رقصت مع ريكاردو وسمحت لعينيها بأن تتعلقا بعينيه بكل وقاحة، وهي تحلم بقبلة منه. لا بد أنه لمح في عينيها رغبتها الحمقاء في تلك القبلة! فمن يلومه إذاً على ما فعل؟

لقد اشمأز ميكيل منها، وهي لا تلومه، اذ كان يراقبها أثناء رقصها مع ريكاردو حتى انه ظن أنها كانت تريد حقاً الانفراد بريكاردو، في الشرفة. وكان ان رغبت حقاً في تلك القبلة إلى ان تدخلت نكرياتها المرعبة تلك لتفسد ذلك الحلم الجميل.

منذ البداية كانت تعلم ما الذي يريده ريكاردو. لقد أراد إقامة علاقة مع الغجرية. لطالما أراد منها رجال آخرون الشيء نفسه، ولكنها لم تكن تسمح لنفسها أبداً بالوقوع في شرك رغباتهم تلك. ان لاجيتانا الغجرية، تعلم جيداً كيف تقوم بدورها مع ريكاردو سوان. انها ترقص لأجله، وتقابله على ضوء الشموع وسترقص معه كما رقصا تلك الليلة في لوس أركوس.

في الشهر القادم، ستكون هي في مدينة مكسيكو وسيكون هو هناك.

كلا، لن يكون. ليس الآن على الأقل حيث انها لم تف بوعدها في لقائه الساعة التاسعة من صباح اليوم التالي في ماريدا، ليعلم بعد ذلك، من المكتب انها رحلت مع شقيقيها قبل الفجر.

لقد ثارت ثائرة ميكيل عندما دخلت غرفته الساعة الثالثة بعد منتصف الليل، متوسلة إليه بأن يسافروا قبل الصباح بواسطة مطار آخر لكي لا يكون بامكان ريكاردو أن يلحق بها كما سبق وهددها.

لقد قالت لأخيها بيأس انه سيكون في المطار، حيث سيتبعها إلى ان يجدها. سمعت صوتها يقول ذلك، لترى عبوس ميكيل في وجهها، قائلاً: «اهدأي يا عزيزتي. ماذا في استطاعته أن يفعل؟ انني ساكون إلى جانبك على الدوام، انني سأتحدث إلى الدكتور سوان بنفسي.»

وذعرت هي إذ تصورته يتحدث إلى الدكتور سوان. وهتفت: «كلا.» لقد سبق وقام ميكيل بمثل ذلك عدة مرات في الماضي، عندما كان الرجال يتدافعون نحوها دون أن

يدركوا ان وقوفها وحدها على المسرح لا يعني انها ستكون وحدها خارجه. ذلك ان لها أخوة يحمونها.

سألها ميكيل: «قبلة؟ هل قبلك على الشرفة؟ ألم يقم بأكثر من ذلك؟»

أجابت: «كلا. لا شيء أكثر من ذلك.»

قالت ذلك وهي تتصور احتضان ريكاردو لها، ونظراته إلى جسدها، وإلى ذكريات الكابوس التي تدفقت في ذهنها.

عاد ميكيل يسألها: «وما الذي فعله ليخيفك هكذا؟»

أجابت: «لا شيء.» ذلك ان الخوف قد تفجر من داخلها ليكتسحها بكل ذلك الرعب، وتابعت: «فقط... قبلة... انني...»

وانفجر هو قائلاً: «وهل أرغمك على قبلته تلك؟»

قالت بذعر: «كلا.»

فقال وهو يبسط يديه شاعراً بالخيبة: «ماذا إذاً؟ يا عزيزتي ماريا، انك معجبة به. انني أعرف ذلك لقد رأيتك ترقصين معه. كما ان نظراتك لم تفارقه أثناء العشاء. لقد كان منجذباً اليك ورقص معك على الشرفة. فلماذا تدفعك هذه القبلة البريئة إلى الهرب منه في الليل... يا عزيزتي؟»

فقالت متوسلة: «أرجوك يا ميكيل، أرجوك. انني أعرف ان الذنب كان ذنبي.» لقد كانت ترغب بقبلة منه أثناء تلك الرقصة الأخيرة. لا بد انه كان يبدو في عينيها انها تريد منه احتضانها أيضاً. ذلك لأنها كانت تشعر بذلك حقاً وهي ترقص معه. ولكن، ما كان لأحلام المراقصة أن تستحيل إلى حقيقة واقعة.

وأخيراً قال ميكيل: «انك ستواجهين هذا الأمر يوماً ما... أم انك تريدين أن تبقي، طول حياتك عمة لأولادي، دون زوج أو أولاد لك؟»

فقالت بحدة: «ولكنه لا يريد زوجة.»

فابتسم ميكيل قائلاً: «ربما كان هذا صحيحاً، ولكنه سيعلم ان ماريا كونسرتا لن تكون له سوى زوجة.»

فقالت: «كلا، انني لا أريد زوجاً. انني أعرف انك ووالدتي، تظنان ان هذا هو الشيء الوحيد المناسب للمرأة. ولكن عندي مهنتي يا ميكيل، ان أولادك سيكونون بمثابة أولادي، وكذلك أولاد إميليو، اذ أظن ثمة فتاة ستوقعه في الشرك قريباً وربما كانت ابنة أخت ديسكانسو.»

عند ذلك ضحك ميكيل، ذلك انه سبق لاميليو وأخبره انه سيتأخر في ماريدا عدة أيام. ولهذا ظن ميكيل بها الجنون اذ تحاول الهرب في منتصف الليل، من ريكاردو.

ولكنها كانت تهرب من حماقاتها. لم تكن تظن من قبل انها يمكن أن تستجيب لاغراء رجل، ولكنها ترى الخطر الآن. وهي لا يمكن أن تسمح بمثل ذلك بعد الآن، لأنها ستكون دوماً على حذر.

وشدتها نيتا من يدها وهي تشير إلى الشاطىء خلف ماريا، قائلة: «ماريا... من يكون ذلك الرجل؟» وجاهدت ماريا لكي تجد لقدميها موطئاً على الرمال تحت الماء... رجل؟ لقد عرفت من هو قبل أن تدير رأسها. في إمكانها أن تشعر بنظراته على جسدها. ذلك أنه كان ريكاردو بنفسه واقفاً على الرمال. كان يرتدي سروالاً باهت اللون وقميصاً قصير الكمين مفتوحاً عند العنق، كان يقف

منتصباً واضعاً يديه في جيبي سرواله كما لو كان يمشي على الشاطىء.

سارت خطوتين على الشاطىء، ثم توقفت. وقال: «مرحباً ماريا. كيف حالك؟»

خرج اسمه من بين شفتيها: «ريكاردو...» لم تكن واثقة تماماً من أنها تلفظت باسمه. وشعرت بنيتا تتخبط في المياه بجانبها، فوضعت يدها على كتفها. لم تكن تريد أن تخرج من المياه بينما عيناه تراقبانها. فهي لم تكن ترتدي شيئاً عدا ثوب البحر الأسود الذي يظهرها شبه عارية تقدمت خطوة خارج الماء. وقالت تخاطب الطفلة بصوت خشن، ربما كان من أثر الموجة التي سبق وصفعت وجهها: «نيتا، هذا دكتور سوان.»

وسمعت صوت ابنة أخيها وكأنه قادم من مكان بعيد. ثم صوت ريكاردو يقول شيئاً لم تفهم ما هو. ووقفت نيتا أمامه بينما انحنى هو يفك سترة النجاة التي ترتديها وكأنها واحدة من بنات أخته اللاتي سبق وحدثها عنهن.

ومشت ماريا إلى حيث كانت قد سبق وبسطت بطانية على الرمال، لتلتقط شالها ثم تلفه حول جسدها. ولم يكن يكفي، ولكنه كان على الأقل، لا يسمح له بأن يرى منها، حين ينتهي من نيتا ويستدير إليها، اكثر من ساقيها.

وجذبت نيتا ذراعه وهي تسأله: «هل تسكن في لوس كابوس؟»

قال وهو يبتسم لها: «كلا. ولكنني جئت لأرى عمتك ماريا.»

فقالت نيتا باسمة: «هذا حسن، إنها طيبة، أليس كذلك؟»

قال: «أظنها غاضبة مني.» ونظر إلى ماريا متحدياً.

عضت نيتا شفتها وهي تقول: «لا تهتم لذلك، يا دكتور سوان. إذا هي غضبت منك، أخبرها فقط انك تحبها، فتبتسم مرة اخرى.»

وضحك ريكاردو، بينما شعرت ماريا بوجنتيها تلتهبان. وهزت رأسها مستنكرة، ولكن جدائل شعرها المبللة تساقطت حول وجهها. ورفعت يدها تتخللها بأصابعها.

نظرت إلى نيتا قائلة: «إذهبي يا نيتا إلى المنزل واخبري أباك أن ثمة صديقاً معنا هنا.»

نظر ريكاردو مفكراً إلى نيتا وهي تندفع راكضة نحو المنزل، تجر وراءها سترة النجاة. وشعرت ماريا بخفقات قلبها تتعالى.

قال: «هل ارسلت تطلبين النجدة؟»

لم تجد فائدة من الانكار فقالت: «نعم. لم يخطر على بالي أنك ستتبعني.»

فهز رأسه قائلاً: «لا تكذبي عليّ يا ماريا، إنك كنت تعلمين ذلك.»

عندما قالت نيتا أن ثمة رجلاً، علمت ماريا حالاً أنه ريكاردو.

وسألها: «هل مهمة ميكيل هي أن يبعد عنك الرجال؟»

فهمست: «نعم، إنه أخي وهو دوماً...»

فقاطعها قائلاً: «وهكذا هربت مني.»

لم تعرف ماذا تقول. ربما كان باستطاعة الغجرية أن تعارض حقه في القدوم، ولكن الغجرية لم تكن الآن هنا في هذا المكان. لقد كان على هذا الشاطىء، ماريا المرأة فقط.

كان في استطاعتها أن ترى حرارة الشمس تلفح وجهه. كانت عيناه ضيقتين وملامحه يغطيها العبوس. لم يكن يبتسم.

وسألته: «لماذا تبعتني؟»

فأخرج يديه من جيبي سرواله وهو يقول: «إنك تعرفين السبب.» فتراجعت خطوة إلى الخلف وهي تمشط شعرها بأصابعها، ثم قالت: «إنني... أعني بعدما حدث في ماريدا... يجب أن تعلم أنني لا أريدك أن...»

فقال وهو يتقدم منها، فتبتعد هي عنه: «أن اغويك؟»

ومد يده يمس شفتيها. كانت لمسة رقيقة... نكرتها بقبلته.

وقال: «إنني أريدك، يا ماريا كونسرتا، فماذا بإمكاننا أن نفعل؟»

كان عليها أن تندفع إلى الخلف وتتخلص من لمسته الرقيقة تلك.. ولكن نظرة إلى وجهه أوقفتها عن كل حركة. لم تكن واثقة من أن ما سبق ورأته في وجهه، عندما كان يراقبها وهي ترقص على المسرح، كان مجرد رغبة، أم شيئاً آخر لم تكن لتسمح لنفسها بأن تراه من قبل.

وأجابته بصوت بدا فيه بعض الخوف: «لا شيء. لن نفعل شيئاً بهذا الخصوص.»

وانحدرت لمسته عن شفتيها إلى أسفل عنقها حيث كان نبضها يرتفع. وعاد يسألها: «هل أنت متأكدة من أن كلمتك لا شيء، هي حقاً ما تريدين؟»

نكريات فقط... نكريات قبلة أخذت تراودها في أحلامها، ويقظتها ليرتفع بذلك خفقان قلبها وهي تتدرب

على أغانيها الجديدة في غرفة الموسيقى في منزلها. وفي الحلم، إذ استيقظت آخر الليل وهي تفكر في ريكاردو الذي كان يلامس جسدها بالطريقة التي سبق وقرأت عنها في القصص الغرامية. ولكن ذلك كان في الحلم. فقط...

وأشاحت بوجهها عن لمسته وهي تقول: «عليّ أن أذهب... لقد أخبرت أنا والدة نيتا أنني سأرعى ابنتها...»

قال: «كفى يا ماريا.»

فتجمدت وقد تحولت عنه بنصف استدارة. وعاد يقول: «لا تهربي إذ أن أخاك سيكون هنا حالاً.»

فهمست: «هذا جنون.» وعقدت ذراعيها فوق شالها الذي يحيط بجسدها. واستطردت: «إن قدومك إلى هنا هو الجنون بعينه. إذا اقتربت مني فسأهرب. إنني لا أريد هذا الأمر.»

هز رأسه بحدة قائلاً: «إنك خائفة. إنني افهم ذلك الآن. كما انك ستخبرينني عن...»

فقالت بذعر: «كلا. إنك فقط تريد المغنية الغجرية، وهذه ليست موجودة. لقد قمت أنا بهذا الدور.»

مد يده يلمس ذراعها من فوق الشال. كانت لمسته رقيقة ثابتة، كما كان وجهه رصيناً. وللحظة، ظنت أنه سيقبلها، فانفرجت شفتاها دون معنى على الاطلاق.

قالت: «ربما...»

قاطعها: «استمعي إلي. افهمي ما اقول ولا تنسيه ابداً.» وبدت في نبراته مشاعر قوية وهو يتابع: «إن لمساتي لك لا تبعث السرور في نفسي إلا إذا كنت أنت نفسك ترغبين في هذه اللمسات.»

قالت: «كلا. لا أريد. لماذا لحقت بي؟»

السيطرة عليه، ذلك أن تصورها لبول مع آنيت جعل قلبها يخفق بألم وضيق شديدين بحيث لم تستطع ان تفصح عما شعرت به حقاً، ان كلامه ليس صحيحاً بالطبع... ولماذا تشعر هي بالغيرة من آنيت وموعدها مع هذا الرجل؟

سألها بول بلهجة مبطنة بالسخرية: «وهل كنت تقبلين الخروج معي لو أنني طلبت منك ذلك؟»

شعرت تشارلي بصدمة كادت تدفعها إلى الصراخ وهي تشعر بشيء يعتصر قلبها، مما خنق تنفسها، وجعل صوتها خشناً وهي تقول: «ليس في حياتك كلها. أعني...» وجاهدت لتتمالك اعصابها وقد ساءها اهتزاز صوتها مما يفضح ما تشعر به من اهتياج داخلي، وعادت تقول: «انني طبعاً اتمنى ان اتعشى في مطعم شالمورث هاوس، وماذا تتمنى المرأة غير هذا؟ ولكن، لو كان لي أن اتعشى هناك، فإنني افضل ان يكون رفيقي أكثر...» وفكرت قليلاً في الكلمة المناسبة، لحظة، ثم قالت: «أكثر تعاطفاً معي وذلك لكي استمتع بالطعام.»

كانت تريد أن ينتهي الحديث عند هذا الحد، شاعرة ان تعليقها الأخير قد انقذ كرامتها المفقودة بشكل جيد، ولكن نظرة منها إلى وجه بول الذي بدا شيء من الانتقاد في التواء شفتيه، إلى نوع من التساؤل الفكه في عينيه اللامعتين، هذه النظرة منها ذهبت بهدوئها الذي تبخر كما يتبخر الضباب في اشعة الشمس. وقالت: «في الحقيقة، انك تسدي إليّ معروفاً بخروجك هذه الليلة إذ انني استمتع حقاً بليلة هادئة امضيها في المنزل.»

فتمتم قائلاً: «طبعاً.»

قال ميكيل: «هذا شيء لم يكن متوقعاً.»

كانا يتحدثان بالاسبانية بشكل مؤدب متكلف. وشعرت بتوترهما. ووضع ميكيل يده على كتف ماريا قائلاً: «اذهبي إلى المنزل يا ماريا قبل أن يؤذيك البرد.»

كان هذا المنطق سخيفاً وشمس الظهيرة تلهب الأجواء. ولكنها كانت ترتجف دون أن تستطيع تمالك نفسها. حقاً ان ميكيل قد جاء لينقذها، ولكن الخطر كان في أعماق نفسها. إنها لا تريد أن يبقى ريكاردو هنا، ولكنها أيضاً لا تريده أن يرحل.

فجأة، قال ريكاردو: «يا سيد كونسرتا. هل لك أن تتركنا معاً، أنا وماريا، لفترة قصيرة. إنني أريد أن اتحدث إليها.»

سأله ميكيل: «تحدثها عن ماذا؟»

أجاب ريكاردو: «لقد جئت لأطلب يد شقيقتك للزواج.»

همست: «كلا.» وشعرت بيد ميكيل تسقط عن كتفها. فاستدارت إليه لترى عينيه تضيقان محذراً بينما كان يحدق في ريكاردو قائلاً: «يمكنك أن تتفضل إلى المنزل بعد أن تنهي حديثك مع شقيقتي.» فوافق ريكاردو مجيباً: «نعم.»

ولكن ماريا قالت: «كلا.»

وقال ميكيل لريكاردو: «وستبقى معنا لتناول العشاء.» فأومأ ريكاردو برأسه مستجيباً.

وعاد ميكيل يقول بوجه جامد الملامح: «وسأراقب أنا الشاطىء من منزلي ذاك.»

فقال ريكاردو: «نعم. إنني متفهم لذلك.»

كانا يتداولان في الأمر وكأنها قطعة أثاث يناولها ميكيل كونسرتا إلى ريكاردو سوان. رفعت رأسها وضمت يديها

بعنف وهي تقول لأخيها: «استمع إلي يا ميكيل. لن اتزوج احداً.»

أجابها: «لقد حان الوقت لتتحدثي إليه، يا عزيزتي.»

وشعرت بنبضها يرتفع، وكادت تصرخ، أو تقول أي شيء، إن ميكيل سيتركها وحدها مع ريكاردو الذي لن يكون بإمكانه أن يفعل شيئاً أكثر من مجرد قبلة بسيطة مادامت على الشاطىء وأمام منزلها الذي يراقبونهما منه. ولكن...

أخيراً، قالت: «حسناً، سأتحدث معه.» واستدار ميكيل مبتعداً، وأخذت هي تراقبه وهو يسير في الطريق المؤدي إلى المنزل، ثم وضعت يديها في جيبي شالها، ثم أخذت تلوك شفتها.

وسألها ريكاردو: «هل تشعرين بالبرد؟»

فهزت رأسها نفياً، ثم استدارت مبتعدة عن جوار منزلها الآمن، نحو المياه. ربما لن تجد الحماية مع ميكيل، ولكن إذا لزم الأمر بأن تبتعد عن ريكاردو فستسبح بعيداً حتى تصل إلى المركب، ولن يكون في استطاعته السباحة خلفها بثيابه الكاملة. نظرت خلفها، وكان هو على بعد خطوات قليلة منها، ذلك الرجل الذي لا يستسلم للهزيمة.

وسألها: «لماذا قلت لميكيل انك لا تريدين الزواج مني؟»

فأجابت: «وماذا كنت تريدني أن أقول؟ هل أقول انني لا أستطيع الرقاد دون أن يأتيني طيفك في المنام؟»

التوت شفتاه بابتسامة. وحدثتها عيناه عما كان يريد قوله. كان يريد أن يقول، أريد أن أحب شقيقتك. وسأزورها في مدينة مكسيكو وكنسان ومونتري، وسآخذها بين ذراعي وأقبلها و...»

أدرك هو من عينيها أنها فهمت ما يفكر فيه. وقالت: «لا أريد الزواج. لا أريد لأحد أن يكون له سلطة علي.»

قال: «هل تريدين إذاً، أن تصبحي عشيقتي؟» فأشاحت برأسها بحدة قائلة: «لا أستطيع.» فمد يده يمسك بيدها المنقبضة وهو يقول: «تعالي معي، إذاً.»

تحركا ببطء مبتعدين عن أشعة الشمس وسألها: «منذ متى تسكنين هنا؟»

فأجابت: «منذ ثماني سنوات. لقد ابتاعه أبي وأخي ميكيل بعد عودتي من الولايات المتحدة.»

فقال: «من لوس انجلوس؟»

فقالت: «نعم.» ومشت أمامه ولكنه لم يترك يدها.

وعاد يسأل: «لماذا كنت في لوس انجلوس؟»

هزت كتفيها وهي تدفع الرمال بقدمها الحافية. وعندما رمقته بنظرة منها، وجدته طويلاً جداً حيث أنها كانت حافية القدمين، لو كان صغير الجسم لكان الأمر سهلاً ولما خافت منه أن يستعمل قوته ضدها.

سألها: «هل لكم اقرباء هناك في لوس انجلوس؟»

فأجابت: «إن عمتي تعيش هناك مع زوجها. وقد عشت معهما إلى أن انهيت دراستي.» وهزت كتفيها واستطردت: «كان ذلك منذ وقت طويل.»

وسألها: «ومتى عدت؟»

قالت: «ولماذا كل هذه الأسئلة؟»

أزاح بيده عن وجنتها خصلة من شعرها المبتل وهو يقول: «لأنك غامضة.»

قالت: «ثمة أشياء غامضة لا ينبغي كشف النقاب عنها.»

سألها: «لماذا صرخت عندما قبلتك؟»

قالت: «كلا. لم افعل ذلك. هل سمعني أحد؟»

فأجاب: «كلا. لقد وضعت يدي على فمك.»

تورد وجهها للذكرى. لقد كانت تشعر بالمتعة والتوتر والرغبة إلى أن فاجأها رعب الماضي. ولو لم يغطّ فمها بيده لسمع جميع من في المطعم صرختها تلك.

وقالت بصوت مرتجف: «انك تريد الغجرية وليس أنا. تلك المرأة المحمومة العواطف. لقد حاولت أن اخبرك أنها غير حقيقية.»

تجاهل كلماتها وهو يعاود سؤاله: «هل لك أن تخبريني لماذا تخافين؟»

قالت متلعثمة: «إنني... إنني لا أستطيع.»

قال: «يمكنني أن اسأل، عن ذلك، أخاك.» فمدت يدها تمسك بقميصه تجذبه قائلة: «إنه لن يخبرك.»

قال: «إنه إذاً يعلم.»

تركت قميصه الذي تجعد في يدها وهي تقول: «ألا يمكن أن تكف عن هذا الحديث؟ أليس أمامك سفر إلى مكان ما؟ الاكوادور، مثلاً، أو لوس انجلوس أو ماريدا؟؟»

قال: «تورنتو.. إنني قادم لتوي من هناك.» وإلا لجئت إلى هنا قبل الآن.»

فسألته: «لماذا كنت في تورنتو؟ أعني... إنني أتمنى لو تعود.»

فقال: «أحقاً. يا ماريا؟ أظن أننا يجب أن نتزوج. إنني لا أستطيع أن أظفر بك عشيقة وعينا أخيك تراقبان.»

فقالت: «هيا، استسلم للهزيمة وعد من حيث أتيت.»

قال: «كلا.»

فقالت ساخرة: «وهل يمكنك أن تقودني مرغمة إلى رجل الدين لعقد الزواج؟ أو أن أقول نعم عندما يسألني إن كنت أقبل بك زوجاً؟» وابتعدت عنه وهي تنثر آخر كلماتها في الهواء قائلة: «إذا كنت تريد لاجيتانا، فاحضر حفلاتي في مدينة مكسيكو الشهر القادم. إنها ستكون هناك، على خشبة المسرح.»

قال: «ولكنها هنا كذلك.»

فالتفتت تواجهه قائلة: «كلا.» كان بينهما ثلاثة امتار فقط وكان بإمكانه أن يقطع تلك المسافة إليها في لحظة واحدة. واستطردت تقول: «إنك مجنون، إذ تريدني لشيء هو غير موجود.»

قال: «نعم. إنني مجنون حقاً. ولكن هي أنت من أريد وليس لاجيتانا. إن الغجرية التي في اعماقك هي أكثر خطراً من تلك المرأة التي على المسرح. وما أروع أن أرى حمرة الخجل في وجنتيك، ليرتفع رأسك بعد لحظة، وقد تدفق صوتك بالعاطفة التي تسري في دمك وكأنك تحاولين إنكار تلك العاطفة التي نعلم كلانا بأنها موجودة.»

فقالت: «لا يوجد شيء من ذلك.»

جالت عيناه على ما يبدو من جسدها وهو يقول: «اتظنين أن العواطف المحمومة تبدو فقط بالقبلات والملامسة؟ لقد ظننت ذلك عندما رأيتك لأول مرة. لقد نومتني مغناطيسياً، أردت أن أغادر ماريدا في اليوم التالي إذ أنني أدركت أنه إذا أنا بقيت...»

فقاطعته: «إذا كنت أنا قد نفثت عليك سحري لماذا لا تبتعد إذاً؟»

كانا يحدق احدهما بالآخر كمصارع الثيران، والثور في الحلبة. وتمتمت هي: «هيا، ابتعد من هنا.»

فقال ساخراً: «أبتعد عنك؟» ووضع يديه في جيبي سرواله وأخذ ينظر إلى الماء والطيور المحلقة. ثم قال ببطء: «في البداية، قلت في نفسي انني يجب أن اتذوق حبك، لكي استريح.» وأدار رأسه إلى الخلف ينظر إليها. ثم تحرك نحوها. حدثتها نفسها بالهرب، ولكنها جمدت في مكانها حيث احتوى وجهها بين راحتيه محدقاً في أعماق عينيها.

فابتلعت ريقها. وتابع وهو يلامس وجنتها بإبهامه: «إنني أعرف أنك خائفة. مع أنني، عندما أنظر في عينيك، أدرك أنك تريدين ذلك.»

اقترب من وجهها ليلامس شفتيها بخفة لم تشعر معها بأي خطر، ثم ابتعد. رفعت ناظريها لتنظر في عينيه اللتين كانتا تخترقان عينيها وهو يقول: «هل لك أن تخبريني ما الذي حدث لك؟»

لم تستطع الجواب.

قال برقة: «ستخبرينني يوماً ما.»

قالت: «إنني لا أعرف عمّ تتحدث.»

فقال: «أظن أن شيئاً حدث لك في لوس أنجلوس عندما كنت هناك.»

فوضعت يديها أمامها وكأنما تحاول تجنبه، فشبك أصابع يديه الاثنتين بأصابعها. حدقت في أصبعه القوية السمراء القابضة على أصابعها، ثم رفعت أنظارها إلى وجهه لترى أنه هو ايضاً يتفرس في ايديهما. وخامرها شعور بأنها

ترقص معه في ماريدا بينما عيناها متعلقتان بعينيه.

نظر إليها بدوره بعينين قاتمتين عميقتين. وقال: «إنني لا أريد أن أخيفك يا ماريا، ولكنك يجب أن تعلمي أنه إذا لم أعلم بما حدث...»

فقالت: «ألن تذهب من هنا؟»

قال: «كلا.»

قالت: «إنني لن أتزوجك. إن هذا جنون.» قال: «لا بد أن نصبح عشاقاً، سواء بالزواج أم بعدمه. ولكن يجب أن تعترفي بأن إغواءك سيكون تحدياً لأخيك الذي ينفث النار في جو المكان.»

وشعرت بضحك هستيري يختنق في حلقها. وقالت: «كيف يمكنك إغواء امرأة لا تريد ذلك؟»

كيف امكنها أن تقف هنا، بين الرمل والماء، ويداها في يديه وهما يتحدثان عن الغواية؟

فقال: «ولكنني أعرف أن تلك المرأة تحب أن تقبلني.»

كان اقترابه يزداد منها. وأدركت من توتر يديه ومن نظرته إليها، ما هو بسبيله. وتابع قائلاً: «لقد قبلتها مرتين من قبل، والآن...»

قالت: «والآن...» وتصورت قبلته في خيالها.

قال: «والآن، فإنني متأكد من أنها ستستمتع بقبلتي. أليس كذلك يا ماريا؟»

ولامس وجنتها برقة. نظرت إليه بعينين واسعتين.

عاد يقول: «هل تريدينني أن اقبلك، يا ماريا؟» ولم تستطع أن تتلفظ بنعم أو لا، وخرجت من فمها حشرجة قد تكون دعوة، أو ذعراً...

www.elromancia.com

وقالت: «ريكاردو... لا يمكن هذا... إنني لا...» فوضع أصبعه على شفتيها ليسكتها. وهو يقول: «ليس هذا هو الموضوع. إننا لم نتحدث سوى عن القبلة.»

ورفعت يدها تقبض على معصمه لتبعد يده عن فمها. هل هي تريد ذلك حقاً؟ أن يقبلها مرة أخرى؟ نعم، إذا كان ثمة أمان لها. وعاد هو يشبك أصابعه بأصابعها.

قالت فجأة: «كان المفروض أن التحق بجامعة جنوب كاليفورنيا، كلية الموسيقى. وكان والدي يفكر في أنني بعد التخرج، باستطاعتي التدرب على مهنة في الموسيقى الكلاسيكية. كنت قد اعتدت على الغناء معه، ولكنني توقفت عن ذلك عندما بلغت الثالثة عشرة، إذ صمم على ارسالي إلى الولايات المتحدة للتعلم.

حاولت أن تجذب يديها من بين يديه ولكنه لم يمكنها من ذلك. ولم يقل شيئاً لكي لا يقطع عليها حديثها.

وتابعت تقول: «كان لي معلمة لتدريب الصوت في السنة الأخيرة من المدرسة العالية. وكانت تعطيني دروساً خاصة.» وابتلعت ريقها مرغمة نفسها على الكلام ثم استطردت: «ثم، في نيسان، حدث لها حادث سيارة، فغاب عنها في التعليم تلميذ سابق من تلامذتها.»

ونظرت إليه وقد اختفت الكلمات.

سألها: «ماذا كان اسم المعلم الجديد؟»

أجابت: «والاس.» ولمع شيء في عيني ريكاردو، ولم تكمل هي بقية الاسم. وتابعت: «لقد اعجبه صوتي. إنه... اعتدت أن التقى درسين اسبوعياً عند المساء. ثم...»

واشتدت يداه على يديها، وتابعت هي «كان... كان لطيفاً

جداً معي. وكان وسيماً جداً، ثم كان...» وبدا عليها الرعب وهي تتابع: «في أيام المعلمة، الآنسة ستانر، كنا نعمل، ولكن عندما استلم والاس العمل، أخذ يمضي الوقت بالمرح، حتى صرت اتطلع إلى اوقات حضوره بلهفة. وأظنني...»

واختفى صوتها مع الكلمات. ما الذي يدعوها إلى أن تذكر هذه القصة الكئيبة؟ إنها لم تكن تسمح لنفسها بالتفكير فيها! فلماذا تستعيدها الآن؟

وقال هو: «وهكذا وقعت في حبه.»

فأومأت إيجاباً وهي تتأمل في أزرار قميصه، مفكرة في ما سيشعر به... أهو الاشمئزاز؟ أم الغضب؟ أم الملل؟ وأخيراً قالت: «نعم. لقد احببته.»

فقال: «ماريا... أنظري إليّ.»

رفعت وجهها. كان حاجباه سميكين حتى أنها لم تستطع قراءة ما في عينيه. ولكنها لم تكن تنوي أن تبكي مهما كان الأمر.

سألها: «كم كان عمره؟»

فتمتمت: «ثمانية وعشرون تقريباً.» وحاولت أن تنزع يديها من يديه فلم يسمح لها بذلك.

سألها: «وما الذي حدث؟»

ارتجفت وهي تقول: «إنني... لقد قال إن الذنب كان ذنبي.»

سمعته يتنفس بشدة، ثم قال: «تابعي كلامك يا ماريا.»

فقالت بذعر: «لم أكن أعلم ما... كان الوقت صيفاً. وكنت آخذ ثلاثة دروس اسبوعياً بعد الظهر، في الاستديو الخاص به. وكنت... وسألني مرة عما إذا كنت أرغب في مرافقته إلى

شاطىء البحر بعد الانتهاء من الدرس. وفي اليوم التالي أحضرت معي ثوب البحر، ثم...» وعضت شفتها وقبضت بشدة على يديه وهي تتابع قائلة: «ثم ذهبنا إلى الشاطىء... وهناك... قبلني.»

ولم تعد تستطيع النظر إلى ريكاردو. وكان هو ينتظر بينما كانت تتحدث بسرعة لكي تنتهي فيترك هو يديها من بين يديه، عند ذاك، يتركها ويرحل ومن ثم تشعر هي بالأمان.

وتابعت تقول: «قال لي في الأسبوع التالي لذهابنا إلى الشاطىء، قال... شيئاً عن الاحتفال لأنه كان سيجري لي الامتحان الموسيقي، ثم... قبلت.» وارتفعت نبضات قلبها. كانت تعرف إلى أين سينتهي بها الكلام، وكانت خائفة. وكانت تسير سيراً حثيثاً نحو الانتهاء منه.

وأخذ إبهام ريكاردو يفرك ظهر يدها. هل كان ذلك تشجيعاً لها أم غضباً منها؟ لم تستطع أن تعرف إذ لم تجرؤ على النظر إلى وجهه. وتابعت: «كنت أعلم أن عمتي وزوجها لم يشكا في الأمر. كانا يظنانه أكبر سناً من هذا التصرف. ولم تكن عمتي اميركية في عاداتها، ولم أكن أنا اخرج مع الشبان، فقلت لها إنني سأذهب إلى السينما مع صديقة لي. وهكذا قابلته... قابلته خارج الاستديو، الساعة السادسة.» وابتلعت ريقها.

اشتدت قبضتا ريكاردو على يديها ولكنه بقي يفرك ظاهر يديها بإبهاميه بينما تسمرت أنظارها على أزرار قميصه، وهي تتابع قائلة: «ظننت أنه سيأخذني إلى مطعم، وأنه سيرقص معي وربما يقبلني مرة اخرى.»

«ماريا...»

وتقلصت يداها عندما تركهما ليمسك ذراعيها. أدركت أنها كانت ترتجف، وكذلك صوتها، وهمست: «ظننتها جلسة شاعرية... هذا كل ما فكرت به... كنت...»

وقاطعها بهدوء: «أعلم ذلك... شاعرية مثل اغانيك ومثل رقصك.»

همست: «نعم. ولكنه أخذني بسيارته ليس إلى مطعم، بل إلى بيت صديق له كما قال. ولم أعرف ماذا افعل... لقد قال إنه مجرد عشاء وليس ثمة فرق بين المطعم وبين المنزل، كما أننا نستطيع أن نتكلم بحرية دون...»

وهزها ريكاردو برفق، وتصاعدت أنة من حلقها بينما أطلق هو شتيمة بصوت خافت. ثم قال: «هذا يكفي. لقد فهمت ما حدث. لن أدعك تحدثينني به.»

فابتلعت ريقها وهي تتابع: «لقد قال...» وهزت رأسها، ولم يبد عليها أنها ستتوقف عن الكلام، واسترسلت بالقول «قال إنه ذنبي أنا. قال ان طريقتي في المشي، وطريقتي في النظر إليه... كان يجب أن اتوقع ذلك...»

قال ريكاردو بعنف: «كفى. انك تكادين أن تكوني طفلة.»

لولا امساكه بيديها لظنت أنها ستسقط على الأرض. وتابعت تقول: «عرفت أنه كان يراقبني. إنك قلت لي ذلك بنفسك في ماريدا... قلت ذلك بالنسبة لمشيتي.»

وأمسك بذقنها يرفع وجهها إليه ويقول بغلظة: «ماريا. أنظري إلي!» وشعرت بالتوتر والغضب الكامن في صوته وعينيه، كان الغضب كامناً مما يجعله اكثر خطورة وهو يقول: «إن لي ثلاث شقيقات. وكل واحدة منهن وقعت في

www.elromancia.com

غرام معلمها أو ممثل سينمائي وذلك في سن السادسة أو السابعة عشرة.» وازداد توتر ملامحه وهو يتابع: «كل شقيقاتي رائعات الجمال كما أنك أنت رائعة الجمال. ولأن المرأة جميلة، وتتحرك كامرأة.. ولأنها تشعر بشيء من الحب لرجل لا تعرفه جيداً...» هز رأسه وهو يتابع: «ليس ثمة عذر لرجل في أن يستعمل قوته ضد امرأة ابداً.»

وتنفست بعمق وهي تحاول تمالك مشاعرها ولكن دموعها اخذت في التدفق.

بدا الغضب في صوته وهو يقول: «لقد كنت طفلة. مجرد طفلة، وكان والاس هذا من النضج إلى حد يجعله مسؤولاً عن تصرفاته.»

بدا وجهه خشناً مخيفاً وهو يقول: «لو أنني...» والتهبت عيناه ورأت ملامحه تتجمد فتغطي مظاهر الغضب.

وبللت شفتيها الجافتين بلسانها. وفتحت فاها ولكنها لم تعرف ما الذي ينبغي أن تقوله، أرادت أن تبتعد، أن تنفرد بنفسها. وهذه كانت نهايتها. الوحدة، ذلك أنه عندما يتلاشى غضبه، فستختلف نظرته إليها، وهزت كتفيها مرة أخرى، وهمست: «وهكذا، كما ترى.»

وكان هو يحدق في يديه، عندما تركها، وهو يقول: «وما الذي اراه؟»

أجابت: «انه لم يعد ثمة أي موجب لبحث أي موضوع.»

تمنت لو كان في استطاعتها أن تجد، في تصوراتها الغجرية المسرحية، ما يخفف عنها ما تشعر به في هذه اللحظة التي تقف فيها أمامه على الشاطىء حافية القدمين، بعد كل ما حدثته به.

الفصل السابع

كانت ماريا تعلم أن عليها ان توقف ما كان يحدث. ولكن، كل ساعة تمر، كان يبدو أن الرباط الذي قيدها ريكاردو به، يزداد غلظة.

إنها لم تقل نعم. لم تخبر ريكاردو ولا أسرتها بأنها قبلت الزواج منه. مع ان كل شخص حولها أخذ يتصرف وكأن العرس كان أمراً واقعاً. شعرت وكأنها تتحرك على المسرح دون ان تعرف ما هي القصة التي تمثلها. كانت غارقة في مستنقع رهيب يمنعها من أن تقول شيئاً أو تقوم بأية حركة.

لم يكن ريكاردو قد قال لها شيئاً منذ سماعه اعترافها ذاك على الشاطىء. كانت تعرف ان هذا الزواج مستحيل، فلماذا إذاً ما زال هنا؟ لماذا كان يتحدث مع ميكيل عن اسرته في الإكوادور وعن أعماله في كندا؟ بهذا، يعطي شقيقها كل المعلومات التي يطلبها الشقيق الأكبر عن خاطب شقيقته؟ وكأنما هو مصمم على هذا الزواج حقاً؟

وكانت الأم تخطط لحفلة الزواج... حفلة الزواج؟ وفي الليلة نفسها؟ على مائدة العشاء، قالت الأم إن الحفلة ستكون في نيسان ـ ابريل. ذلك أن هذا الشهر مناسب تماماً حيث ستكون ماريا قد انتهت من عملها في مدينة مكسيكو. فقد أصبح الوقت متأخراً لإلغاء عقد العمل هذا! وسألت ميكيل رأيه. ووافق ميكيل على ان لا خيار أمام لاجيتانا سوى الظهور في مدينة مكسيكو حسب العقد.

وسأل اميليو الذي كان قد وصل لتوه من ماريدا «وهل نبقي كل هذا سراً؟ أم نضع الحدث هذا في الاعلان، فنقول مثلاً، لاجيتانا و...»

فقال ريكاردو: «سيكون زواجاً مختصراً.» وحالاً، تقبل الجميع الأمر. وكذلك ميكيل...

وسأل ميكيل، الذي استلم إدارة أعمال ماريا منذ مرض والدهم، سأل ريكاردو عن رأيه في عقد التسجيل الجديد لأغاني ماريا. ولم تصدق ماريا ذلك. كانت تعلم ان عليها ان تضع حداً لكل هذا. إذ كلما طال الوقت، صعب عليها إظهار حقها في فرض رأيها. وبدا لها كل شيء حلماً جنونياً.

لقد أصرت الام وآنا زوجة الأخ على ان يترك ريكاردو الفندق حيث يقيم حالياً، في «سان جوزيه ديل كابو» ويأتي ليقيم معهم في المنزل. قدمت الام له غرفة الضيوف الكبيرة في الطابق الثالث. وكانت ماريا ترقد في الطابق الثاني بين غرفتي اميليو ونيتا الصغيرة. وأصبح ريكاردو سوان عريس ماريا كونسرتو الآن. كان قريباً على الدوام. فهو يتحدث إلى ميكيل، ويخرجهم في سيارته التي استأجرها في سان جوزيه. ويتحدث مع أخويها اللذين كانا يبدوان أنهما تقبلاه وكأنه أخوهما الأكبر منذ سنوات.

إنها لا تصدق انه مصمم على هذا الزواج حقاً. لم يكن لديها فكرة عن قصده، ما عدا أنه لم يكن يفكر بالرحيل. لقد دخل إلى المنزل يوم الخميس، وهو اليوم الذي تلا حديثهما ذاك على الشاطىء. ويوم الجمعة أخذ ماريا ونيتا الصغيرة إلى سان جوزيه ديل كابو وكانت رحلة غريبة. ذلك انه لم

يكد يتكلم معها الا قليلاً. كما أنها لم تتحدث معه. بينما تحدثا، هما الاثنان مع نيتا.

نهار السبت، كان ثمة حفلة شواء كبيرة في منزل آل كونسرتا حضرها الأصدقاء الذين سبق ووجهت إليهم الدعوة. كانت النار تشتعل على الشاطىء والكراسي في كل مكان. وجلست جميع النسوة إلى ناحية في ملابس قطنية، ذات تنانير واسعة، يتحدثن ويضحكن، بينما الرجال في ناحية أخرى يرتدون السراويل والقمصان قصيرة الأكمام.

كان الجميع يمزحون مع ماريا ويغيظونها. وكانت تسير بينهم وكأنما كانت تتدرب على اداء دورها. وشرب الجميع نخبها ونخب ريكاردو حتى انها شعرت بالصرخة في حلقها. كان ريكاردو يراقبها كما لو كان يتساءل متى تراها تقف لكي تنكر علناً، كل شيء؟ هل ترى هذا هو السبب الذي جعله يبقى؟ لأنه كان رجلاً شريفاً، وقد أخبر أخاها انه سيتزوج منها... لهذا، يجب ان يكون عليها هي ان تعلن رفضها لهذا الزواج؟

في صباح اليوم التالي، قالت آنا تخاطب ماريا بلطف: «ماريا؟»

أجابت هذه: «نعم؟»

كانت آنا، زوجة ميكيل، امرأة خجولة، هادئة، قانعة ببيتها وأسرتها الصغيرة. ابتسمت لأخت زوجها وسألتها: «ما الذي ستفعلينه بعد زواجك من ريكاردو؟ لا أظنك ستتابعين العمل. أليس كذلك؟»

فتحت ماريا فمها لتنفي ذلك ولكن آنا سارعت تقول: «آمل أنك ستتركين العمل.»

فسألتها ماريا: «لماذا؟»

احمر وجه المرأة وهي تقول: «لكي يكون باستطاعة ميكيل البقاء في المنزل. ذلك انه كان وعدني أن لا يعود إلى أسفاره معك إذا أنا حملت مرة أخرى. وها أنذا حامل الآن. ولكنني أعرف انه لن يدعك تسافرين وحدك.»

لم تكن ماريا تعلم أن أسفار ميكيل معها كانت تسبب مشكلات بينه وبين زوجته. لقد أدار أعمالها مدة طويلة حتى لم تعد تعرف كيف تعالجها بمفردها. وكان الحب العميق يجمع بينه وبين زوجته، ولكن ماريا كانت تعلم أن آنا تكره الأسفار مع أنها كانت، أحياناً، ترافقهم قسماً من الطريق عندما كانت نيتا أصغر سناً.

تابعت آنا تقول: «كما أن نيتا ستذهب إلى المدرسة في السنة القادمة مما يجعل وجود ميكيل، قريباً مني، ضرورياً.»

وقالت لها ماريا: «لا تقلقي لهذا، سأتدبر الأمر، وسترين.»

كان لدى ماريا إحساس خفي بأن حياتها ستنقلب رأساً على عقب. ومهما حدث بينها وبين ريكاردو، عندما يخرج ريكاردو من حياتها في النهاية، فان رغبة آنا في ان يبقى ميكيل في البيت بجانبها، ستكون دوماً في بالها وموضوع اهتمامها.

كالعادة دوماً، ذهبوا إلى المعبد يوم الأحد. جلس ريكاردو إلى جانبها. وفي كل مرة كانت تتحرك أثناء الاحتفال، كانت تلاحظ ان حركاته تتابع حركاتها. ركزت أنظارها على رجل الدين، ولكنها كانت ترى، من زاوية

عينيها، ذراعي ريكاردو. شعرت حتى بأنفاسه الهادئة. وعندما بدأوا في الصلاة كان صوته قوياً عميقاً تجاوبت اصداؤه في مجرى دمها، بينما كانت ذراعها تحتك بقماش بذلته. كانت نيتا تجلس في الصف امامها. وللحظة، ساورها شعور خاطف، بدا لها حقيقياً تماماً، بأن نيتا كانت ابنتها هي من ريكاردو.

ماذا لو انها لم تستطع الاحتجاج على هذا الزواج، وكان هو يعني ذلك حقاً؟ وماذا لو انتهى شهر نيسان لترى خاتم الزواج في يدها وريكاردو يأخذها بعيداً عن أسرتها لتجد نفسها ملكاً له وقد وقعت في الشرك إلى الأبد؟ إنها لم تفهم لماذا لم تصرخ باحتجاجها منذ البداية. لقد كانت هذه اسرتها. ميكيل الذي كانت تتجادل معه وتعتمد عليه طيلة حياتها، واميليو الذي كانت دوماً تضحك معه. أمها التي كانت تحبها ولكنها لم تستطع ان تفهم أبداً لماذا كانت ماريا ترفض الزواج. آنا التي كانت تحب ابنتها وزوجها وبيتها الهادىء المطمئن. هذه الأسرة، كل ما عليها أن تفعله هو أن تجعلهم يدركون أنها لا تريد هذا العرس أيضاً. وبالتأكيد، لو أنها انتظرت، لا بد أن يجد ريكاردو لهما مخرجاً من هذا المأزق.

في الوقت الذي انتهت فيه العطلة الاسبوعية كانت قد عرفت الكثير عنه. وذلك عند استماعها إلى حديثه مع الآخرين. كانت اثنتان من اخواته الثلاث يعشن في الاكوادور. زوج الكبرى يدير اعمال العائلة في الاكوادور. وكان لريكاردو علاقة، كذلك، بتلك الأعمال، ولكن ماريا لم تسأله عن التفاصيل. ذلك انها لم تشأ ان

تعرف تفاصيل حياته. وقد سمعته يجيب عن أسئلة أمها حول أسرته. والشيء الذي لم يقله ريكاردو عن أعمال أسرته، هو الثروة الطائلة. آبار بترول، ومدرسة لتعليم الفلاحين للانتقال بهم إلى مشارف القرن الواحد والعشرين.

كانت أعماله في تورنتو تتعلق بالمناجم. وقد عرفت ماريا ذلك عندما سأل اميليو ريكاردو عما اذا كانوا يتكلمون الفرنسية في تورنتو. وبعد ذلك، كانت تسير نحو مكتب ميكيل، إذ سمعت من الباب المفتوح، الرجل الذي كان الجميع يعلم انه سيتزوجها، سمعته يقول انه ابتعد عن الجامعة منذ سنتين، وأنه يشك في امكانية العودة إلا كمحاضر زائر.

كان هذا شيئاً سخيفاً. ذلك ان كل إنسان كان يعرف شيئاً عن حياة ريكاردو، بينما هي، المرأة التي يقول انه سيتزوجها، لا تكاد تعرف شيئاً عنه ما عدا أنه بقي يلاحقها إلى ان عثر على حقيقتها.

إن عليها أن توقف كل هذا، وخير البر عاجله.

كانت آنا ستذهب يوم الاثنين مع ابنتها نيتا إلى سوق سان جوزيه ديل كابو لشراء قماش لثوب الدمية. ولكن، على مائدة الافطار صباح الاثنين، كان من الواضح ان آنا تشعر بالمرض.

وهمست لماريا أنه القيىء الصباحي المعتاد عند الحوامل.

تطوعت ماريا قائلة انها ستأخذ نيتا إلى السوق مضيفة إلى أنها واميليو، عندهما يوم راحة من التمرين.

وتطوع ريكاردو بأن ينقلهما بسيارته.

استدارت لتواجهه. كانت آنا تخرج من الغرفة بينما الآخرون لم يأتوا بعد. كانت هي وريكاردو فقط، واقفين لا يفصل بينهما سوى سنتمترات قلائل. وكانت هي المرة الأولى التي ينفردان ببعضهما البعض منذ ذلك اليوم على الشاطىء.

قالت: «يجب أن أتحدث إليك يا ريكاردو.» كان نفسها مختنقاً في حلقها. وكان خوفها هذا سخيفاً. ولكن، كان عليها ان تخبره عن معنى هذا الجنون...

قال موافقاً: «سنتحدث بعد الظهر.»

عندما حاولت ماريا ان تتبع نيتا الصغيرة أوقفها ريكاردو بوضع يده على ذراعها.

كانا واقفين عند مكان بيع البوظة. وكان ريكاردو قد أعطى نيتا نقوداً لكي تشتري البوظة. وذهبت هذه إلى البائع تخبره بما ترغب.

قالت ماريا وهي تزيح عنها يد ريكاردو: «سأذهب معها لأتأكد مما ستحضر...»

فقال: «إنها ليست بحاجة إلى معونة، بينما أنت سبق وطلبت التحدث إلي.»

قالت: «نعم.» ولكنها لم تكن متأكدة مما يجب قوله.

سألها وقد وضع يده على كتفها ملاطفاً: «لقد سألتك مرة عما إذا كنت خائفة مني. ولكنك لم تجيبي.»

وأشاحت بنظرها بعيداً. كانت نيتا واقفة أمام البائع على أطراف اصابعها، تتحدث إليه.

وعاد يقول: «ماريا؟»

فقالت: «أتمنى لو تكف عن محاولة...» وابتلعت ريقها.

واضطرب تفكيرها ولم تعد تعرف ما الذي ينبغي قوله. لم تكن متأكدة مما يرجو أن يظفر به منها. واستطردت هامسة «لا أظنك تريد حقاً، أن تتزوجني.»

فقال: «ولِمَ لا؟»

قالت: «أنا لا أريد الزواج منك.»

فقال بهدوء: «عندما يأتي شهر نيسان ـ ابريل، سنعرف حقيقة الأمر.»

قالت: «إنك لا تعني الاستمرار في هذا؟»

فقال: «ألا أعني ذلك؟»

وما أن رأت ملامح الغضب على وجهه، حتى تلاشى.

وسألته: «هل أنت... هل أنت غاضب؟»

أجاب باسماً بسخرية: «لقد قرأت افكارك على وجهك، ما الذي تريدين قوله لي يا ماريا؟ إذهب من هنا، يا ريكاردو؟ إنني أريدك أن تتركني؟» وارتجفت لابتسامته. تابع: «هذه هي الكلمات التي ترتجف على شفتيك، ولكنني أرى في عينيك حقيقة أخرى. لا تخبريني بأن أذهب يا ماريا، إلا إذا كانت هذه هي رغبتك الحقيقية.»

قالت: «إنها الحقيقة... إنني...»

فقال: «لو انني امتثلت لطلبك، وتركتك، إذاً لصرخت، ورميت أفراد اسرتك بكل ما تطاله يداك لأنهم كانوا يتحدثون عن العرس. إعترفي بهذا على الأقل.»

كان وجهه رزيناً هادئاً وقد زاد عمق الخطوط حول فمه.

وأشاحت بوجهها عنه وهي تقول: «لا أدري لماذا لم أقل... اننا لا نستطيع... أن نتزوج!» كان صوتها قد ارتفع وهي تقول هذا، لكنها ابتلعت ريقها عندما رأت امرأة كانت

تسير على الرصيف، تلتفت اليهما وتحدق فيهما. وهمست بحدة: «إننا لا نستطيع! إننا لا نحب بعضنا البعض وأنا لا أريد... لا أستطيع...» ووضعت وجهها بين كفيها.

فسألها بهدوء: «أتريدين ان تقولي انه لا يمكنك ان تحملي نفسك على حبي؟»

أغمضت عينيها وهي تنزل يديها عن وجهها. لقد كان في أحلامها. إنه يأتي إليها في الحلم ليلامسها بطريقة تبعث اللهفة والشوق في كيانها وتجعل وجهها يلتهب ونبضات قلبها ترتفع. وهمست: «ربما...» ولم تستطع أن ترفع انظارها إليه ولكنها عرفت انه يسمع كلامها. وتابعت: «إنني، أحياناً، أظن أننا يمكن أن نكون حبيبين... ولكن، ليس بهذا الشكل. إنني... إنني بحاجة إلى وقت.»

قال بصوت جامد: «عندك وقت إلى شهر نيسان.»

فتمتمت: «إنك كالحرباء تتلون بلون مشاعرك.»

أخذ بيدها يقودها إلى إحدى الموائد وهو يقول: «ها أن نيتا عائدة. وأنت يا ماريا واقعة تحت رحمة مشاعرك التي ترفضين الاعتراف بها. فإذا أردت أفكاري ومشاعري، فانك تعرفين جيداً كيف تجعلينها تظهر للعيان.»

فسألته لاهثة: «وإلى أين يقود كل هذا؟»

قالت: «لا أدري.» وجذبت ذراعها من يده بنفور وهي تجلس على كرسي مواجه للشارع. واستطردت «هل لك أن تكف عن التلاعب بي؟»

فتمتم: «قولي الحقيقة ولو مرة واحدة. فاذا تركتك الآن، لأعود إليك إلى مدينة مكسيكو في شهر نيسان، ما الذي سيحدث يا ماريا؟ هل ستظهرين مشاعرك الحقيقية؟»

فأجابت: «هل تعني أن ننشىء علاقة غرامية؟»

قال: «نعم.»

فابتلعت ريقها ثم قالت: «لا أدري... ربما.»

فتنهد قائلاً: «إنك تكذبين بنفس السهولة التي تنطقين بها بالحقيقة. وأحياناً أتساءل عما إذا كنت أنت نفسك، تعرفين الحقيقة. هل تريدينني ان أرحل بعيداً؟»

وعضت ماريا شفتها وأخذت تنظر إلى الطاولة أمامها. وعلى مسافة أقدام قليلة منها، كان أهالي المدينة يسيرون مسرعين إلى أعمالهم صباح الاثنين. وإلى الطاولة التي بعد التالية لهما، كان ثمة امرأتان تتحدثان بالانكليزية.

وقالت ببطء: «ليس ثمة سبب يدعو لبقائك. إنك سعيت إلى لاجيتانا. وأنا لست هي.»

ووضع يده على يدها قائلاً: «في آخر مرة رقصنا فيها... كنت نفس المرأة التي رأيتها ترقص على خشبة المسرح.»

فقالت: «لقد كان ميكيل غاضباً جدا مني. بينما انا كنت أظن...»

قال: «ماذا كنت تظنين؟»

قالت: «انني كنت آمنة.»

فمال إلى الأمام يحتوي وجهها بيده الأخرى قائلاً: «هل أنت خائفة مني يا ماريا؟ ومني أنا بشكل خاص؟»

ارتجفت وهي تقول: «كلا... ولكن...»

ووضع اصبعه على فمها قائلاً: «كفى يا ماريا. هذا يكفي الآن.»

فانتفضت للمسته، وقالت: «إنني لا أريدك متسكعاً

حولي... تنتظر اللحظة التي لا أريد فيها... لا أريد الأشياء التي تفكر فيها عندما تنظر إليّ بهذا الشكل.»

فقال: «وماذا تريدين يا ماريا، لكي يكون الرقص حقيقياً.»

فغطت وجنتيها بيديها وهمست: «لا تفعل ذلك.»

فقال: «عندما قبلتك، كنت تريدين أن يكون ذلك حقيقياً.»

ونفضت شعرها إلى الخلف، ثم أخذت تمشطه بأصابعها وهي تخفض نظراتها قائلة: «عندما رقصنا، ظننت أن... ظننت ان قبلة واحدة قد تكون آمنة.» ثم نظرت إليه وهي تستطرد هامسة: «إنني آسفة. إنني أعلم أنني جعلتك تظن... ولكن ذلك كان كل ما أردته.»

فقال بلطف وقد بدت الرقة في نظراته: «إنني لست آسفاً إلا على أنني جعلتك تتذكرين الماضي يوماً ما يا ماريا، سأمحو من نفسك تلك الذكريات المؤلمة إلى الأبد.»

نظرت حولها بيأس. كانت نيتا لا تزال واقفة قبالة البائع. وعينا ريكاردو عليها، حتى انها نسيت اين هم. ودفعت شعرها إلى الخلف وهي تقول: «سأذهب لأرى إن كانت نيتا...» وقال هو شيئاً، ولكنها ابتعدت إلى حيث كانت نيتا تحمل صندوق البوظة. لم تكن تطيق الاستماع إلى وعوده.

يوماً ما يا ماريا، سأزيل من نفسك تلك الذكريات المؤلمة إلى الأبد... بقيت هذه الكلمات تتردد في سمعها مرة بعد مرة... ولكن، هل بامكانه ان يمحو الكابوس من رقادها؟

أخذا نيتا إلى السوق، حيث أخذ ريكاردو يتأمل في مختلف أقمشة أثواب الدمى باهتمام، وكأن التصميم النهائي على هذا الأمر هو أهم شيء في هذا النهار.

واقترحت ماريا اللون الأزرق، ولكن ريكاردو اختار اللون الوردي مما جعل نيتا لا ترضى عنه بديلاً.

وهمست ماريا له: «ان شجاراً سيحدث لأجل ثوب الدمية التي اشتراها ميكيل لابنته. ذلك لأنها حمراء اللون لا يناسبها اللون الوردي.»

فضحك وهو يرفع نيتا إلى كتفه قائلاً لها: «ربما كانت عمتك على صواب. ذلك أن اخواتي يقلن لي انني لا أفهم في الألوان. لماذا لا تختارين اللون الأزرق؟»

أصرت نيتا على اللون الوردي. وهذا ما استقر عليه الأمر. أصر ريكاردو على ان يدفع هو ثمن نصف المتر من القماش الذي طلبه من التاجر الذي رأته ماريا يقطع قماشاً من اللونين، الأزرق والوردي وهكذا اشترى ريكاردو من اللونين لأجل نيتا.

وعند رجوعهم من السوق، اوقفهم ريكاردو عند دكان صانع حليّ، حيث طلب من البائع ان يريهم حجر اليشب.

تراجعت ماريا إلى الخلف بحدة. كانت قد نظرت إلى قرطين من اليشب منذ لحظات، ورأى هو نظراتها تلك وعرف ما بذهنها. لقد علم ان قرطي اليشب هما اللذان لفتا انظارها من بين كل تلك الحليّ المعروضة.

وهمست: «كلا.»

لكن قرطي اليشب كانا في يده بينما اختفت قطع النقود في جيب البائع الذي قال لريكاردو بالاسبانية: «ما أجمل هذه السنيوريتا.»

وهزت رأسها وهي تنظر إلى ريكاردو قائلة: «لا أريد أن تعطيني...»

فقاطعها: «هل أضعهما في أذنيك؟»

فهمست وهي تلمس اذنيها بيد مضطربة: «كلا.» ستكون يداه حذرتين على جلدها... بامكانها ان تشعر بلمساته، حتى قبل أن يقترب منها، وكأنه قد نزع القرطين اللاصقين من أذنيها ليضع بدلاً منهما قرطي اليشب. وكاد تنفسها ان يتوقف و...

واقترب منها، فمدت يدها قائلة: «أعطني... أعطني إياهما.»

وتراجعت إلى الخلف عندما تقدم هو نحوها خطوة أخرى، ولكن، لم يكن هناك مكان تذهب إليه، فقد كان ثمة امرأة خلفها، ونيتا وريكاردو امامها.

قالت بحدة: «لا تلمسني.»

فسألها بلطف: «هل أنت خائفة؟»

فضحكت نيتا وهي تجذب ذراع ريكاردو قائلة: «إن عمتي ماريا لا تخاف من أحد.»

واختلطت المشاعر في نفس ماريا... الضيق وتسارع النبض... وأمسكت باحد القرطين بارتباك وأدخلت السلك في أذنها. وتأرجح القرط المتدلي ملامساً بشرتها... فكرت في ريكاردو... انه يريد أن يصل اليها سواء عن طريق الزواج ام بدونه... وإن طلبت منه ان ينتظر حتى يتزوجا، فهو عند ذاك، سيمتلكها.

وهمست: «ماذا فعلت بحقيبة اليد التي اشتريتها في ماريدا؟»

فسألها: «هل ستقبلينها الآن؟»

أجابت: «وهل مازالت عندك؟»

www.elromancia.com

قال: «طبعاً.»

فرفعت وجهها بخفة. كان القرطان يتأرجحان على جانبي عنقها. وقالت: «لقد كنت أرسل ورودك التي كنت ترسلها لي، إلى دار الأيتام. كنت أتخلص منها يومياً.»

أظلمت عيناه وهو يقول: «لا تتخلصي من هذين القرطين كذلك.»

وتسارعت دقات قلبها عندما لمسها. ماذا لو لم يغير رأيه بشأن الزواج؟ وماذا لو لم تستطع هي التخلص من هذا الأمر؟

وزاد الضيق في نفسها بقية النهار. فكان على نيتا ان تكرر سؤالها لها عدة مرات عن رأيها بجمال اللون الوردي لثوب دميتها، قبل ان تسمع هذه السؤال، لتجيب: «إن الثوب سيكون جميلاً جداً.»

سألت نيتا ريكاردو: «في ذلك الوقت، ستكون متزوجاً من عمتي ماريا. أليس كذلك؟»

فقال ريكاردو: «نعم.»

فاستدارت ماريا فجأة لتحدق فيه، ولكنه كان مشيحاً بوجهه عنها. واستطاعت ان ترى وجه نيتا وهي تحدق فيه بلهفة لتعود وتسأله: «وستكون أنت عند ذاك، عمي ريكاردو؟»

قال: «نعم. وستأتين أنت لزيارتنا.»

زيارتنا...؟ لقد صفعت صفة الجمع هذه سمع ماريا... ولكن، كل ما كان في استطاعتها هو أن تصرخ بكلمة «كلا.»

وشعرت بالصداع أثناء تناول العشاء بينما كان اميليو يتحدث عن التدريب على الأغنية الجديدة مع ماريا، صباح

اليوم التالي، وأرادت ان تصرخ بأنها لا تريد ان تتدرب. كانت تريد أن تخبرهم جميعا بأنها ستترك البيت... ستذهب إلى أي مكان... أي مكان...

وقال ريكاردو موجهاً كلامه إلى اميليو وليس لها: «هل يمكنني ان أستمع إلى تدريباتك؟»

فأجابت ماريا بحدة: «كلا.»

فابتسم لها عبر المائدة وسألها: «هل هذه «الكلا» انكليزية ام اسبانية؟»

فأجابت عابسة: «بكل اللغات... بكل اللغات.» ودفعت كرسيها إلى الخلف، وهبت واقفة.

وقالت أمها محذرة: «ماريا!»

لكن ماريا صرخت في ريكاردو قائلة: «كفى!» كانت نظراتها متعلقة بنظراته. كانت المائدة بينهما، ولكن كان بإمكانه وبكل هدوء، أن ينتصر في كل ناحية من حياتها حتى لا تجد مكاناً تلجأ إليه...

كان الصداع يتجمع الآن في كل مكان في جسدها. في ظهرها وكتفيها ويديها اللتين انقبضتا وهي تقول بما يشبه الصراخ: «كفى تلاعباً بي.»

وتمتم اميليو: «هكذا هي.»

وأدركت ماريا أنها كانت تتنفس بصعوبة، وهي تحدق في ريكاردو وتكاد تختنق بالكلمات التي كانت تريد ان تنفجر بها صارخة. هب واقفاً، ليستدير حول المائدة مقترباً منها بوجه خالٍ من أي تعبير، وهو يقول للجميع: «أرجو المعذرة.» ولم ينتظر جواباً وهو يمسك بذراعها يقودها إلى خارج غرفة الطعام، ليدفعها إلى داخل مكتب

ميكيل. وسمعت صوت صفق الباب في اللحظة التي ترك فيها ذراعها.

ودارت في الغرفة. كانت يده لا تزال على قبضة الباب. لقد أحضرها إلى هنا لتتوقف عن الصراخ أمام الجميع، مهما كان سبب صراخها. ولم يوقفه أحد عند حده، ذلك انه كان الرجل الذي ستتزوجه، كما يظنون. لم يدهش أحد منهم إذ غضبت فدفعها هو بعيداً لكي يتشاجرا على انفراد. كان من عادتها مناقشة ميكيل مراراً عديدة، كذلك كانت مع أبيها، وكانوا جميعاً يعرفون مزاجها الناري، وهم يظنون الآن انه خصام بين عاشقين.

عاشقان...

قالت: «أنا لا أريد زوجاً.»

مال برأسه قائلاً: «وماكنت أنا أريد زوجة.»

فقالت متوسلة: «لماذا إذاً لا ترحل من هنا؟»

فقال: «تعالي هنا، يا ماريا.»

فرفعت أصابعها إلى أنفها، وتحسست قرط اليشب الرقيق هناك. وساد الصمت. وكان ينتظر.

سألته: «لماذا؟»

لم يجب. وابتلعت ريقها وقد أدركت، وهي تتحرك انها لم تقرر التقدم إلى الأمام، كأنه مغناطيس فهي لاخيار لها. إنها لا تفهم لماذا لكلماته كل هذه السيطرة عليها، وهي لا تريد ان تكون بمثل هذا الضعف إذا ما نظر إليها. لم تشأ أن تستجيب لأمره لها بالقدوم إليه.

وبدت لها مسافة المترين من السجادة الداكنة التي تغطي أرض مكتب ميكيل، بدت لها مسافة طويلة جداً. وتوقفت على

مسافة نصف متر منه دون ان تتحول عيناها عن عينيه.

وقالت: «إن ميكيل يظن أنني بحاجة إلى رجل قوي بما فيه الكفاية لكي أحني رأسي لارادته. لكنه مخطىء بذلك.»

فقال: «وهل أنا أخيفك إلى هذا الحد، يا حبيبتي؟»

حبيبتي؟ إنه نداء المحبين. إنه لم يستعمل هذه الكلمة قط من قبل. وتقدم مقترباً منها. شعرت بكل احاسيسها تتجمع في جسدها في اللحظة التي رفع فيها يده ومضى يتخلل شعرها بأصابعه.

قال لها: «هل عملي هذا يضايقك؟»

فارتجف جسدها من التوتر. وانتقل صداعها إلى عضلاتها في مختلف انحاء جسمها. ورفعت نظراتها إلى شفتيه المنفرجتين قليلاً، وكأنه يحدق في عينيها ليقرأ أفكارها.

وأخذ إبهاماه يلاطفان صدغيها وهو يقول: «لماذا لا تنفرين مني مبتعدة؟ لماذا يا ماريا؟ إذا كنت لا تحبين عملي هذا فاخبطي قدمك في الأرض بعنف، وارفعي رأسك بكبرياء كما تفعلين عندما ترقصين...»

وضغطت راحتاه على وجهها، وشعرت هي برأسها يرجع إلى الخلف... وانفرجت شفتاها بينما اقترب بوجهه من وجهها.

وسألها بلطف: «لماذا لا؟ لماذا لا تتركينني بمفردي في هذه الغرفة كما فعلت في منزل السيد ديسكانسو، إذ تركتني على الشرفة وحدي يكاد يقتلني الشوق إليك؟»

وسرت في جسدها رعشة، وهمست وما زالت عيناها مسمرتين في عينيه: «إنك ستمنعني من ذلك.»

فقال: «كلا، إذا كانت هذه مشيئتك.»

www.elromancia.com

فعضّت على شفتها بأسنانها..

وعاد يقول بلطف: «هيا... إذهبي الآن.»

وضعت يديها على صدره تدفعه عنها. كان مرتدياً قميصاً من الحرير. شعرت يداها بحرارة صدره ونبضات قلبه.

سألها برقة: «ألا تدركين ما الذي يحدث؟»

كانت حرارة جسده من خلال قميصه تحرق يديها.

وقالت: «أريدك أن... ترحل.»

قال: «كلا ماريا... إنك تريدينني أن آخذك بين ذراعي هكذا...»

فارتجفت وهي تقول: «إنني...»

ولكنها كانت قد اصبحت بين ذراعيه.

كان قلبه يخفق تحت يديها، وكانت مشاعرها موزعة بين يديها اللتين كانتا على صدره تدفعه عنها، وبين يديه اللتين عادتا تتخللان شعرها الذي كان مسترسلاً على كتفيها.

تنهدت، وفتحت عينيها لتحدق في عينيه الملتهبتين.

وهمس وهو يحدق في عينيها هو الآخر: «لا تطلبي مني الرحيل بينما هذه النار تشتعل في دمك. إنها هي التي تسبب لك كل ذلك الضيق. ان عينيك تخبرانني بالحقيقة.»

وانحدرت يداه تلامسان ذراعيها. كانت ترتدي ثوباً أخضر اللون من دون أكمام. وقال: «إنك كنت تعرفين انني سأجلس إلى المائدة امامك. أليس كذلك؟»

فقالت: «نعم.»

فقال: «ثم اخترت أن ترتدي هذا الثوب؟» فقالت وهي ترتجف: «إنه الثوب الوحيد الذي كان لونه يتلاءم مع لون القرطين.»

وعاد يحتضنها وهو يبتسم ببطء، وتنهدت وهي تلفظ اسمه بطريقة أفزعتها.

وقال فجأة بهدوء: «ثم قفزت، ونحن على المائدة، صارخة، ليس لأنك كنت غاضبة، بل لأنني كنت جالساً امامك وكنت تريدينني... فلم تستطيعي احتمال ذلك.»

فقالت: «كلا.» وأخذ صدرها يعلو وينخفض.

وقال: «نعم، يا حبيبتي... أكذبي على نفسك كما تشاءين ولكن، لا تصرخي أمام أسرتك انك لن تتزوجيني وانك تريدينني أن أرحل، بينما انت تهربين من مشاعرك.»

لقد تغير وجهه الآن وكذلك مشاعره. تركها متراجعا إلى الخلف مبتعداً عنها.

وهمست: «لا أدري ما الذي كنت سأقوله لهم هناك.»

فأومأ برأسه متفهماً وهو يقول: «لا بأس. في المرة القادمة قولي ذلك لي.»

وابتلعت ريقها، ثم سألته: «هل أنت عاشق للسيدة كاتي جينان دي كورسيكا؟» وتراجعت إلى الخلف مبتعدة عنه هي أيضاً، وقد شعرت بالخوف لإلقائها هذا السؤال. كان هذا السؤال يعني انها تهتم بالجواب. وتابعت تقول: «إنهم يقولون، في ماريدا، ذلك. وانك أردتها لنفسك.»

لم يجب. شعرت بالغثيان والألم، إذ أن لا شيء في وجهه أنكر ذلك.

وقال: «هل تهتمين، يا ماريا، إذا أنا أحببتها؟»

فشعرت بأصابعها تتوتر، وقالت: «كلا.»

فقال: «إذاً، فان جوابي لا يهمك.»

الفصل الثامن

وقفت ماريا أمام النافذة، في غرفة نومها، وأخذت تحدق في البحر. وكان ضوء القمر يغمر الوجود. أطلت من النافذة... وتوقفت انفاسها وهي تستمع إلى صوت الأمواج وهي تلاطم رمال الشاطىء.

وداعبت نسائم الليل بشرتها. وأحست برعشة باردة فلفت ذراعيها حول جسدها تبعاً لحركاتها.

كانت لمسات يديه، وتنفسه الخشن... لقد أيقظها هذا ثائرة متألمة... لتجد ان كل ذلك كان حلماً، وأن جسدها يتقلب مضطرباً متعثراً بأغطية الفراش...وأنها كانت بمفردها.

ولم تستطع النوم مع كل ذلك التوتر. كان صداعاً، نوعاً من الصداع الذي يرافق الحرارة والرطوبة. لقد قال ريكاردو ان جو الاكوادور، حيث تسكن أسرته، ليس أبداً كهذا الجو. وتساءلت عما إذا كان يعني ان يسكنا، هما الاثنان، هناك. وقد صرخت في اعماقها ان هذا لا يمكن ان يحدث أبداً.

إنها سترتدي، في الصباح، ثوباً أقل أنوثة من ذلك الثوب الأخضر. ولن تضع قرطين في أذنيها، خاصة قرطي الببشب المتدليتين. سترتدي سروال الجينز مع أن أمها كانت تعبس دوماً عندما تراها ترتدي الجينز. وستخبره، وستجعله يصدق، بأية طريقة كانت، انها لا تريد الزواج ولا العلاقة الغرامية.

لكنه كان قد أعجب بها مرتدية سروال الجينز حتى أنه قد يقبلها. وسيكون هذا هو رد فعله لكي تشعر بتفاهة ما ستفعله لتظهر رفضها له.

واستدارت عن النافذة تنظر إلى أغطية سريرها المكومة فوقه في ضوء القمر. ولم تستطع النوم حيث جاءها ذلك الحلم المغري. والأفضل ان تذهب إلى غرفة الموسيقى، فتغلق الباب، ثم تدير شريطاً موسيقياً. كانت الغرفة عازلة للصوت، مما جعلها صالحة للتسجيل. وأول تسجيلاتها نفذت في تلك الغرفة مما جعل ميكيل يقترح ان يفتح بابها لغيرهم من الفنانين للتسجيل، متحدثاً بهذا الشأن إلى السيد ديسكانسو. وكان هذا ما تريده زوجته آنا، وهو أن يكون لميكيل عمل يجعله قريباً منها في المنزل. وقد قال ميكيل هذه الليلة، على مائدة العشاء، إنه إذا كانت ماريا مصممة على أن تخفض من أوقات عملها بعد الزواج، فهو...

أوه، كلا... ليس غرفة الموسيقى. ان اسم ريكاردو وكلماته يترددان في أذنيها... وكذلك احتضانه لها ذاك في غرفة مكتب ميكيل بينما كان أفراد الأسرة على مائدة العشاء، وربما كانوا يتحدثون بشأنهما وأن قوة شخصية ريكاردو مناسبة جداً لأنهم جميعاً كانوا يعلمون ان ماريا بحاجة إلى يد قوية.

وخلعت قميص نومها، وألقت به على السرير، ثم فتحت الدرج تبحث عن ثوب البحر ذي اللون الأسود، ولكنها لم تجده. لا بد أن الخادمة أخذته للغسيل. ووجدت أخيراً ثوباً آخر ذا القطعتين. وكانت تلبسه أحياناً عندما تذهب

للسباحة بمفردها. فقد كانت تعشق ملامسة مياه البحر لجسدها.

كان الوقت ليلاً... وضوء القمر في الخارج... لبست ثوب البحر ولم تستطع العثور على الروب المنشفة. لا بأس، فان الهواء كان خفيفاً والمياه دافئة. انتعلت صندلاً وتناولت منشفة من حمامها، ومن ثم هربت من ذلك الصمت المقلق في منزلها.

وفي الخارج، رأت البدر معتلياً قبة السماء. ولم تكن قد نظرت فقط إلى الليل، والمياه، والقمر. وخلعت الصندل على الرمال وركضت حافية نحو الماء وحبيبات الرمل تتخلل أصابع قدميها، إلى أن وصلت المياه إلى وركيها. بسطت ذراعيها لترتفع فوق سطح الماء. وما لبثت المياه ان تراجعت حولها مع الموجة المنحسرة نحو وسط البحر. وقفت دون شعور، تتأمل المياه التي كانت تتحرك حولها. ورأت كابينة المركب عند المرساة. وكانت تعلو وتنخفض تبعاً لحركة المركب فوق المياه.

واستدارت تلقي نظرة على المنزل الذي كان يبدو كشكل أسود يعلو إلى السماء. كان ضوء القمر حولها يعمّ الأرجاء. أخذت تحدق في ذلك الشكل المرتفع، حتى استطاعت تمييز مكان النوافذ. ثم نافذتها، وعندما تعودت عيناها على النظر إلى النافذة تلك، وجدتها مفتوحة على مصراعيها. وفي الطابق الأعلى، كانت هناك نوافذ مفتوحة أيضاً. كان ريكاردو واقفاً عند النافذة الثانية من نهاية المنزل البعيدة. هل يا ترى كان ينظر إليها كخيال يبدو له في ضوء القمر؟

وارتفعت المياه إلى خصرها فارتجفت رغم دفء

المياه. إنها ستتحدث اليه غداً. ستخبره انها ستكون عشيقته إذا هو رحل الآن ليوافيها إلى مدينة مكسيكو. وهذا ما أراده هو منها منذ البداية. وربما، في النهاية، ستكون بالنسبة إليه كآثار المايان. ما أن يكتشف أسرارها حتى يدير لها ظهره ويرحل.

كم سيدوم هذا؟ شهوراً؟ ربما أسابيع قليلة بعد انتصاره. وانقبضت يداها لتتسرب المياه من بين اصابعها. من الأفضل ان ينتهي كل هذا بسرعة. لا زواج. لا خاتم في اصبعها. ذلك انه، إن تزوجها، فسيأخذ منها كل شيء. موسيقاها ورقصها. وسيرحل بها عن منزلها عندما يضع ذلك الخاتم في اصبعها... وكل ذلك لأنها لم تعطه تلك العاطفة المحمومة التي رآها فيها وهي ترقص على المسرح. فاذا أصبحت عشيقته خارج نطاق الزواج... فلا بد، بعد ذلك، من ان يطلق سراحها.

وأخذت تحدق في ذلك السواد، الذي هو المنزل، لترى شبح رجل يغادر ذلك السواد. ورفعت صوتها تناديه. كان في منتصف الطريق نحو الشاطىء متجهاً نحوها مباشرة. وكان يرتدي نفس الملابس التي كان يرتديها عندما احتضنها وأخذ يلامس كتفيها وهو يخبرها أنه يعرف ان الصرخة كانت في اعماقها. هل عرف ان ارتفاع ضربات قلبها كان بسبب قربه منها؟ هل عرف انه، عندما دخل غرفة الطعام، شعرت هي بالشراسة وعدم الراحة، وطلبت الحرية في الرقص وخشبة المسرح؟

ووقف عند حافة المياه.

صرخت به: «إنني لن أتزوجك. لقد طلبت مني أن أخبرك

بذلك بدلاً من أن أصرخ به امام اسرتي. وهكذا أخبرك الآن بذلك. ولن يكون هناك عرس.»

كان يقف على بعد خمسة أو ستة امتار منها. ولم تستطع رؤية ملامحه. كانت ترى شكله فقط. وكانت يداه مسترخيتين إلى جانبيه لا يبدو عليهما اي توتر.

جاءها صوته: «لا تصرخي والمياه بيننا... كما هو الحاجز الذي بينك وبين المشاهدين في المسرح. أتظنين أنني لا أستطيع القدوم إليك داخل الماء؟»

فدفعت برأسها إلى الخلف لينزل شعرها إلى خصرها تقريباً. وقالت: «إن أرسلت إلي ورداً في مدينة مكسيكو، عند ذلك سآتي إليك.»

قال: «وتكونين عشيقتي؟»

أجابت بينما توترت أصابعها تحت الماء: «نعم.»

فانحنى، ثم أخذ يخلع حذاءه.

فهمست: «ما الذي تفعله؟»

ما كان ليجيبها لو انه سمعها. وابتدأ يفك أزرار قميصه.

أبعدت المياه من حولها بيديها. وفي ضوء القمر، بدا أمامها عاري الصدر.

وغمرتها المياه إلى صدرها. وأدارت وجهها وغطست في المياه. وأخذت تسبح لتصل إلى قمرة المركب قبل ان يلقي هو بنفسه في الماء.

وعندما وصلت إلى حيث يرسو المركب، كانت تلهث.

امسكت بحافة المركب بيد، ثم اتبعتها بيدها الأخرى، لتصبح معلقة فوق الماء، عندما التفت ذراعه على وسطها تجذبها إليه. والتوى جسدها وافلتت قبضتها

حافة المركب، ذلك انها لم تكن تجد قوة ضمن المياه.

وقبض على حافة المركب بيد، بينما احتضنها بذراعه وهو يقول: «هل ستختبئين مني في مدينة مكسيكو؟»

فقالت: «كلا...»

فقال: «استديري الآن وأريني وجهك، ثم اخبريني انك تريدينني أن أرحل.»

وسحب ذراعه من حولها. وكانت هي طافية على سطح المياه تحدق فيه.

وقال لها: «إبقي لحظة قبل ان تهربي.» كان صوته من الهدوء بحيث كان غريباً ان يصل اليها عبر الماء.

وقالت: «وما فائدة هربي؟ إنك أقوى مني، وستسبح خلفي إلى ان تمسك بي.»

فقال: «وهل سبق أن أمسكتك حين كنت تريدين الهرب مني؟»

فقالت وهي تعض شفتها: «نعم. في سيارتك الجيب عندما كنا ذاهبين خارج ماريدا.»

فقال بهدوء: «فعلت ذلك لكي أحميك من مخاطر قفزك من السيارة. وكان بامكانك ان تصرخي طالبة معونة الشرطي حين مررنا به.»

قالت: «وهذه الليلة، سحبتني إلى مكتب ميكيل.»

فقال: «سحبتك؟»

وشعرت بالحرارة تسري في جسدها وهي تتذكر مشاعرها عندما كانت يده على ذراعها داخلاً بها المكتب، ليستدير إليها بعد ذلك ويحتضنها.

وقال آمراً: «تعالي هنا يا ماريا.»

www.elromancia.com

فاقتربت منه سابحة في الماء حتى لم يبق سوى مسافة متر واحد بينهما. وعاد يقول: «اقتربي اكثر. يجب ان يكون الخيار خيارك، يا ماريا، لأنه لن يكون، بعد ذلك، أي سؤال.»

فقالت بصوت أدنى من الهمس: «بعد ذلك؟ إنني لست...»

قال: «إنك كنت تنتظرينني... لقد أردتني أن آتي إلى هنا.»

وأخذت تتنفس بصوت عال. وعاد يقول: «إنك وقفت يا ماريا في ضوء القمر، ورأيتني أراقبك من نافذة غرفتي حيث كان من المفروض ان أكون نائماً. هل ظننت أنني نائم؟»

قالت بصوت خافت: «لقد حلمت...» فألح عليها بلطف: «هيا، اقتربي واخبريني بماذا كنت تحلمين.»

هل هي التي اقتربت منه، أم انها حركة المد والجزر هي التي دفعتها نحوه؟

وهمس وهو يمد يده: «تقدمي.» ومدت يدها إليه فجذبها نحوه.

وهمست: «ماذا ترتدي؟»

فقال: «ثوب سباحة.»

أغمضت عينيها وحاولت ان تتنفس.

فقال: «أعدك بأنك ستكونين في أمان.» وتنفست بعمق. لقد كانت المياه حولهما. وكان الرجل الذي رأته في الحلم، طافياً قريباً منها ويده مشتبكة بيدها.

وقالت: «لم أعد أشعر بالأمان منذ رأيتك تراقبني من خلف تلك الطاولة في مطعم لاكازا دل فينيتو. وأنا الآن خائفة جداً.»

كان يجذبها نحوه. ومدت يدها الأخرى تمنع نفسها من الانزلاق نحوه كلياً.

وسألها: «هل تريدين أن تهربي، يا ماريا؟»

فأجابت: «نعم... لا أدري...»

قال: «ليس الآن؟ أعطني قبلة أولاً.»

قالت لاهثة: «قبلة واحدة فقط.»

قال: «أعدك بأن أدعك تذهبين، بعد ذلك.»

www.elromancia.com

الفصل التاسع

تاهت عينا ماريا في أنحاء غرفة نومها، وقد اختلطت الأفكار والمشاعر في ذهنها.

منذ لحظات، مددها ريكاردو على سريرها بكل رفق، ثم طبع على جبينها قبلة وهو يقول: «سأتركك الآن يا حبيبتي. ولكن، تذكري انك أصبحت الآن ملكي. إنك زوجتي الآن.»

همست هي: «كلا.» ولكنه كان قد ذهب بعد أن أغلق الباب خلفه بهدوء، فلم يسمع كلماتها تلك.

زوجته... زوجته... إنه ما زال يفكر في الزواج بها! هل تراه امتلكها، في ضوء القمر، لأنه لم يستطع أن يجرها إلى مخدع الزوجية؟

إن الذنب ذنبها وهي المسؤولة عما حدث. لقد حاولت ان تتملص من الزواج، وذلك بتسليمها نفسها إليه... أن تعطيه فقط شخصية الغجرية، لقد كانت حمقاء إذ ظنت انها يمكن ان تمثل هذا الدور كما لو كانت على خشبة المسرح. كانت حمقاء إذ ظنت انها يمكن أن تتخذه عشيقاً وتنجو من أن يتملكها.

حمقاء...

وألقت بالأغطية لتقف حافية في وسط الغرفة التي كانت غرفتها لسنوات عديدة... الغرفة التي شهدت أحلامها وتخيلاتها عن الحياة.

كان الفجر يلّون السماء. وكان ريكاردو قد احضرها إلى

غرفتها متأخراً. ولو تأخرا لحظات أكثر لكان أهلها رأوهما يعودان في هذا الوقت إلى المنزل. كيف سمحت لهذا بأن يحدث؟ لقد وقفت هناك، في الماء، وأخذت تتطلع إلى نافذة غرفة نومه، متشوقة لأن يأتي إليها.

لقد كانت تظن انه إذا أصبح عشيقها، فسيتركها ويتخلى عن طلبه الزواج منها.

زوجتي...

ها هو قد أوقعها في الشرك. بينما أمس فقط لم ينكر أنه يحب كاتي جينان، ولكنه يطالب بماريا وكأن مسألة حبه ذاك لكاتي، لا أهمية لها. لقد سمعته ينكر شعوره بدمه اللاتيني الحار الذي يسري في عروقه، ولكنها شعرت، منذ البداية، ان ثمة عرقاً اسبانياً قوياً موروثاً عنده... عرقاً لا يمثل صفات الاسبان الحسنة، بل أسوأ ما عندهم. لقد أدركت ذلك الآن. انه مصمم على الاستحواذ عليها. ربما لأنها حاولت طويلاً ان تقاومه. إنه لم يحبها، ولكن هي الرغبة في التملك فقط.

الغموض... إنه رجل يفتنه الغموض. وفي ما بعد، عندما يكتشف ان الاثارة قد تلاشت بعد انكشاف غموضها، سيتذكر أنه كان يحب امرأة أخرى. ليبدأ عند ذاك، في النظر إلى ماريا متمنياً لو كانت تشبه المرأة التي كان يحب. تلك المرأة التي لا يمكن لها أن تقارن نفسها بها. امرأة باردة شقراء أميركية في كل شيء. الدكتورة كاتي جينان التي لا بد أنها كانت تتحدث معه عن شعب المايان، بينما هي وريكاردو يتحدثان عن كل شيء، ماعدا تلك المواضيع التي تثير خياله.

دخلت الحمام تزيل عن جسدها، بالماء والصابون المعطر، آثار ملح البحر. ريكاردو سوان... إنها أكبر غلطة اقترفتها... إنها أسوأ من تفكيرها ذات مرة في أن تكون فتاة أميركية عندما كانت في السابعة عشرة يوم وقعت في حب والاس. لقد أرادها ريكاردو زوجة له لتتخلى، عندذاك، عن كل شيء لأجله... وعندما ينتهي حبه لها، لن يبقى لها شيء سوى الفراغ، والرغبة المؤلمة إلى الأبد.

إنها تنتسب إلى الرقص، وستبقى كذلك إلى الأبد. كان يجب أن تتذكر ذلك. كان يجب ان تبقي أحلام الحب على المسرح، حيث نشأت. وهناك، وقعت في غلطتها الكبرى. هناك حيث رقصت تلك الليلة في ماريدا معه، وهي تظن انها يمكن ان تصل إليه، كما لو كانت على المسرح، دون أن يؤثر ذلك على حياتها.

إنها ستنسى الليلة الماضية تلك. ستنسى حبه ورقته التي غابت معها عن الوجود، والتي حملتها على البكاء. إنها تعلم جيداً الآن أن ريكاردو وحده القادر على أن يحقق لها ما هو أجمل من كل أحلامها التي راودتها عن الحب. وكذلك من كل ما كانت تقرأه من الكتب التي تتحدث عن الغرام.

لكنها لم تحبه. ليس ذلك الحب الأبدي الذي كان بين أبيها وأمها... كان شعورها نحوه فقط... ولكن، آه لو يمكنها أن تنسى جمال وروعة ما جعلها تشعر به... وكيف كان صوته يلامس أحاسيسها وكأنها أثمن شيء عنده في الوجود.

واستدارت نحو مجفف الشعر تجفف شعرها، الذي جعلته في أعلى درجة حرارة، ولكنه فشل في أن يجفف

شعرها تماماً، وأخيراً ألقت به جانبا بعنف. لماذا تهتم بالعناية بشعرها بينما حياتها سائرة نحو الدمار. كيف لم تفكر في ما هي مقدمة عليه، بشكل أفضل؟ إن من الجنون أن تفكر باتخاذ عشيق، أو ان تقوم بذلك فعلاً وأسرتها تحيط بها... كان يمكن أن يقعا، لو كان أحد قد رآهما عند ذلك، في شرك الزواج حتماً، ولابد أن ريكاردو معتوه إذ يظن نفسه راغباً حقاً في ذلك الزواج.

وبلغ بها التوتر إلى حد تشنجت معه أصابعها لتنغرز في باطن كفيها وهي تفكر في أن الحقيقة هي أن رغبته لم تكن في امتلاكها، كلا، ولا امتلاك الغجرية التي فتنته برقصها وغنائها. كان الأمر أكثر بساطة من كل ذلك. لقد كانت الأقاويل عن غرامه بتلك المرأة الشقراء صحيحة. ولكنها متزوجة وتحب زوجها. وأيضاً حامل، من زوجها ذاك، مما كان يجعل ريكاردو في منتهى التعاسة والألم والغيرة كلما رآهما معاً. وفي تلك الليلة، رقصا... كاتي وزوجها، وجاء ريكاردو إلى ماريا ليرقص معها، منساباً بها إلى الشرفة ليقبلها حتى كادت تصرخ ذعراً. ذلك أنها كانت امرأة لاتينية ذات شعر أسود طويل مما لا يدع له مجالاً ليتنكر تلك الحبيبة الشقراء القصيرة الشعر. إمرأة لا تعرف شيئاً عن الحفريات والآثار التي تفتنهما، هما الاثنان، هو وكاتي... امرأة كانت... كانت تختلف تماماً عن المرأة التي يحب.

كان يمكنها ان تفعل أي شيء لتوقف كل هذا... أن تدعي انها تعاني من ألم في كاحلها، أثناء حفلة العشاء تلك في ماريدا. وكان يمكن لها أن تبقى في فراشها أمس، بدلاً من

أن تندفع خارجاً في ضوء القمر ثم... ثم تدعوه إليها. حتى بعد ذلك، عندما أتى إليها، كان بامكانها ان تقول لا... ولقد أعطاها الفرصة لذلك. ولكنها هي التي رفضت.

ولمحت من نافذتها شيئاً، فتوقفت تنظر إلى مساحة الرمال البيضاء المترامية أمامها. ورأت ريكاردو. كان قد استيقظ مبكراً ليتمشى، كما كان يتراءى لمن يراه... وذكرت كلمته «زوجتي...» يبدو أنه حقاً سيحفظ كلمته هذه.

تحولت ماريا إلى باب غرفتها وأغلقته بالمفتاح. إنها لن تفتح له الباب إن فكر في الحضور إلى غرفتها.

وفتحت خزانة ثيابها لتخرج حقيبة ثيابها الزرقاء، ذلك لأن الحقيبة الحمراء كانت تخص لاجيتانا. ومضت تتناول اشياءها تلقيها في الحقيبة قبل ان تفكر تماماً إلى أين تريد الذهاب. لا بد ان ميكيل ستتملكه الثورة عندما يدرك مدى حماقة أخته.

وستتملك نيتا خيبة الأمل، وكذلك آنا. أما أمها فستشعر بالحزن، إذ كانت تظن أن ابنتها وجدت أخيراً الحب. فهي كانت تتحدث دوماً عن العرس والأطفال، وذلك الرجل الرائع الذي هو ريكاردو.

كان ريكاردو يصعد السلم، في الوقت الذي كانت هي تهبطه قاصدة ميكيل. وتوقفت على الدرجة الثالثة من أسفله. كان يقف مبتسماً لها. ونظرت إليه تحاول أن تجد ما تقوله.

لم تكن تظن انها ستراه هنا قبل ان ترى ميكيل. وابتلعت ريقها، وهي تدرك انه ليس بامكانها تجنب هذه المقابلة، وذلك بالركض إلى ميكيل لكي لا تتحدث إلى ريكاردو... فقد بدا لها هذا التصرف صبيانياً.

قال وهو يتقدم منها: «ماريا.»

عادت تصعد الدرج خلفاً وهي تمد يدها نحوه توقفه عن التقدم، هامسة: «كلا.» وعبس هو، ورأت عيناه تكتسحانها بنظرة شاملة، لتستقرا، بعد ذلك، على فمها.

سألها بهدوء: «أي شيء خططت له وأنت تستيقظين من النوم؟»

أجابت: «إنني لم أنم. كنت أفكر في خطة أرحل بها.»

ورأت يده تمتد إليها، ولكنه توقف عن ذلك قبل ان تعود فتصعد الدرج مبتعدة.

وقال بهدوء: «يوماً ما، ستعلمين انه ما كان لك أن تخافي مني.»

فقالت: «إنني لا أريدك أن تكون هنا.»

فقال: «لقد فات أوان الرحيل، يا ماريا. يجب ان تدرك لاجيتانا ذلك.»

فقالت لاهثة: «كلا. لا أريد أن أكون ملكاً لك. لقد طاردتني... وظفرت بي.» وتوترت ملامحه لكلماتها تلك التي لا تتغير. ابتلعت ريقها ولكن كان عليها ان تستمر، وتابعت قولها: «إنك لم تترك لي أي خيار.»

فقال: «لقد كان الخيار خيارك، ليلة أمس.»

فقالت: «نعم.» ولم تستطع النظر في عينيه. لا تريد ان تتذكر ذراعيه تحتضنانها، ولا كلماته الحلوة...

وقال: «والآن تريدين أن تهربي؟»

وتنفست بعمق قبل ان تقول: «إنني لم أوافق أبداً على الزواج منك. إنه شرك نصبته لي ولا يمكنني... لن... لا أريد أن أكون بديلة عن... إذا شئت أن أكون عشيقتك...»

وابتلعت ريقها... كان ذلك جنوناً، فقد علمت الآن ان هذا لا يمكن ان يكون كافياً.

فقال بحدة وقد توترت عضلات فكه: «لقد أصبح هذا مستحيلاً الآن.»

فقالت: «نعم، هذا صحيح. فهل ترحل إذاً؟ إنني لم أقبل بالزواج قط، وكذلك لا أريد عشيقاً، ولكنك... أنت...»

فأكمل كلامها بهدوء: «أنا أغويتك...»

فقالت بحدة: «نعم. وأظنك تتوقع مني أن اشكرك على الخدمة التي...»

فقال بعنف وهو يمد يده يمسك بها: «كفى.»

ولكنها تراجعت صاعدة وهي تقول بلهجة لاذعة: «كلا... لا تضع يدك عليّ. لقد فعلت ذلك ما فيه الكفاية، وكان فعلك في منتهى الجودة إذا شئت أن تعلم و...» وتوقفت عن الكلام وهي ترى الشراسة في ملامحه. لم تكن تتوقع مثل هذا الغضب منه.

وقال: «أتريدين أن تخفي نفسك مرة أخرى؟ أن تهربي مما هو في داخلك؟ ولكنك لا يمكن ان تختفي، يا ماريا.»

فتجمدت في مكانها، ثم رفعت رأسها وقالت: «إنني... كلا!»

فقال وهو يصعد نحوها بخطوة واحدة: «ربما من الافضل ان تعاودي التفكير في ما أنت مقدمة عليه.» وأخذ يلاطف وجنتيها بيده. مما جعلها ترتجف وهي تتنكر مبلغ حبها له. هذه الذكرى التي ستبقى معها إلى الأبد، لتظهر في أحلامها، وأثناء رقصها.

وقال بلطف وكأنه قرأ أفكارها: «إنك مثلي، لا يمكنك الابتعاد، بعد الآن.»

وتراجع بخفة، مادّاً لها ذراعه وهو يقول برقة: «هيا إلى تناول الافطار يا ماريا. تعالي معي.»

فقالت: «كلا. لا أريد أن أكون زوجتك. لا أريد.»

فقال: «إن مشاعرك هذه ستصلح يوماً ما، وسيكون ذلك معي.» وابتسم، واخافتها ابتسامته هذه. وعاد يقول: «مازال هناك وقت، مادمت تعتبرين نفسك منتسبة إلي.»

إلى أين سينتهي بها المصير؟ إنه رجل غني ومرموق في بلاد عديدة. عالي الثقافة شريف النسب. ومع انه قد يعتبر نفسه اميركياً اكثر منه لاتينياً. فبامكانها أن ترى الروح الاسبانية تطل من عينيه، من كبريائه وهو يراقبها ترقص على المسرح. ومن الثقة التي علم فيها أن جسدها متشوق دوماً إلى حبه وعواطفه.

ومشت معه خطوتين، ثم نفرت منه بعيداً وهي تقول بكل وضوح: «إنني لا أريد خاتم زواجك هذا.»

في هذه اللحظة، كان ميكيل خارجاً من مكتبه فتوقف لدى سماعه كلماتها تلك، ثم تراجع إلى الخلف عائداً إلى مكتبه تاركاً إياهما بمفردهما.

وراقبت أخاها دون أن تنبس بكلمة. وقال ريكاردو: «إن الأمر بيننا الآن.»

فقالت: «نعم. لقد فعلت انت ذلك بقصتك تلك عن الزواج، حرمتني من حماية اهلي لي.»

فضاقت عيناه وهو يقول: «ولكنك لم تهتمي بمسألة الحماية هذه، الليلة الماضية.»

فأجابت: «لأنني قلت انني سأمنحك الحب. تباً لك. أعطني هدايا، إذا شئت، مجوهرات وتلك الحقيبة اليدوية. ذهب وفضة وياقوت كما قلت. لا بأس، ولكن ليس خاتم الزواج.»

فقال: «أهذا ما تريدين؟ أن تكوني حبيبة فقط؟» كان يقف بحزم، وقد انقبضت يداه.

نظرت إلى يده اليمنى. وقالت: «لقد فعلت أنت كل هذا. أمي، أخي و... كيف لي اقناعهم أن كل هذا... أنك اوقعتني في الشرك متعمداً.» عضت شفتها حين اشتدت قبضة يده وكأنه يريد أن يضربها. ولكنه ما لبث ان مد تلك اليد ليضعها على كتفها قائلاً: «لا شيء لتقوليه لأهلك. تزوجيني في الشهر القادم، اما بقية الأمور فسنعالجها معاً. كل هذا...» وهزها بخفة متابعاً: «ماريا، لا ينبغي لك ان تخافي. ما كان ليحدث ما حدث بيننا لو لم يكن علي ان اتركك، حسب رغبتك ولكننا إذا ماتزوجنا...»

فقالت: «أتظنني سأتزوج رجلاً مثلك؟ رجلاً لا يستمع أبداً إلى اعتراضاتي؟ والذي يعتبر رغباته هي تمنياتي؟» ونفضت يده عن كتفها فتركها فجأة مما أخل بتوازنها.

وقال يردد كلماتها: «تمنياتك؟»

قالت: «نعم، تمنياتي! إنك لم تسألني عن رأيي بهذا الزواج! إنني لا أريدك! ولن أعيش معك. وقد انتهى كل شيء الآن! والآن، إذا أنت لم تترك هذا المنزل، فساتركه أنا.»

فقال: «ليس عندك ذرة من ادراك ما تريدينه حقاً. ذلك انك مستغرقة في صورتك المسرحية إلى درجة لا يمكنك معها معرفة شخصيتك الانثوية.»

فغرزت أظافرها في راحتيها وتصنعت الابتسام. كانت

ابتسامة الغجرية. وسألته بنعومة: «الصورة المسرحية هي التي أردت. أليس كذلك؟ إنك أردت أن تصبح الغجرية حقيقة واقعة، لأنها لا تشبه المرأة التي تحبها حقاً.»

وأخذت تتنفس بعنف، وعند ذلك أدرك انها غاضبة، ثائرة، مشتعلة لأنه لم يهتم بما فيه الكفاية بأن يمنعها من طرده. وعادت تسأله بوحشية: «هل تراك كنت تفكر فيها عندما كنت معي؟ هل كنت تفكر في كاتي؟»

ومض شيء في وجهه أدركت معه بهلع، أنه كان شيئاً أكثر من الخوف. كان حقيقة يتمناها بين ذراعيه، والزوجة التي أرادها.

واشتعل الغضب في نفسها بعد إذ أدركت انها أرادت ما كانت ترغب في ان تلقي به بعيداً. هذا الرجل الذي إلى جانبها والذي دخل حياتها. كانت تريده وتخاف منه.

ومد يده إليها، ولكنها تراجعت إلى الخلف. وقال: «إنك أنت التي أريد.»

فقالت ساخرة بينما قلبها يتمزق: «إن صوتك ينقصه الاقتناع يا... حبيبي. ولكن، إذا كنت تريد التخيلات التي توحي بها الغجرية، فيمكنك...» وكادت ترتجف لكلماتها هذه وهي تتابع: «يمكنك ان تحضر حفلاتي على المسرح، وسأغني لك.»

استدارت بعنف، فمد يده إليها بسرعة، وهكذا، بدلاً من ان تتجاوزه بعنفها ذاك، اصطدمت به وجهاً لوجه. وشعرت به يتنفس بغضب وصعوبة. وقال: «يا للسخافة... ثمة طريقة واحدة للتفاهم معك.» أحنى رأسه يحاول تقبيلها، وقالت بذعر: «كلا. لا تلمسني.»

فهمس: «ماريا.»

ورفعت راحتيها تدفعه عنها قائلة: «لا تلمسني أبداً مرة أخرى. كفى... إنني... إنني... إنني في أشد الرعب منك. لا أريدك أن تلمسني.»

وتجمد في مكانه. ثم وضع يديه في جيبي سرواله متمهلاً وهو يقول: «إذهبي إذاً. إبتعدي عني إلى الجحيم قبل ان استسلم للرغبة في ان انفض عنك تلك الحماقة اللعينة.»

وغصت بريقها. ما الذي كانت بسبيله؟ لماذا فعلت هذا؟ لقد نزلت من غرفتها والخوف يتملكها، بينما هي الآن يسودها الارتباك. إنه دوماً يسبب لها الارتباك. ذلك انها عندما تكون بعيدة عنه، كانت أحياناً تشعر بتمالك لنفسها، ولكن، في حضوره...

وسألها: «هل سترحلين؟ دعي عقلك الأحمق يعمل ولو مرة واحدة وفي كل الأمور. هل أنت خائفة مني؟ أم انك تملكين الشجاعة للوصول إلى حيث يعرف كلانا أنها رغبتك؟»

وابتلعت ريقها وهي تشعر بالارتباك والعجز اللذين يتملكانها كلما كان قريباً منها، وهمست تسأله: «هل... هل تحبها؟ أخبرني... أخبرني بالحقيقة يا ريكاردو.»

بدا عليه التعب. وقال: «إن كاتي ليست مشكلة بيننا.»

فقالت: «ولكنني أريد أن أعلم.»

فهز كتفيه قائلاً: «حسناً، إذاً. لقد ظننت مرة أنني أحبها.»

فسألته: «متى كان ذلك؟»

فأجاب: «أثناء الصيف الماضي. قبل ان تتزوج.» وسألها بجفاء: «هل تريدين التفاصيل؟ ان هذا لا يشكل فرقاً بالنسبة إلينا، يا ماريا.»

فهمست قائلة: «أريد أن أستعيد ذاتي. وهذا هو منزلي، فأنت الذي يجب ان يرحل.»

كانت تعلم انها لا تستطيع الصراخ. لا تستطيع ارغامه. وان امسك بها فستستسلم له. لقد كان الأمر صحيحاً وهذا ارعبها، إذ انه اعترف بأنه أراد نفس الشيء من امرأة أخرى... نفس الشيء الذي يطلبه منها هي الآن.

وكان ذلك في الصيف الماضي فقط.

وسألها بهدوء: «هل هذا حقاً ما تريدينه؟ أتريدين مني أن أرحل؟»

فاومأت برأسها إيجاباً اذ لم تستطع النطق.

فقال: «إنني لن أعود في هذه المرة.»

اومأت برأسها مرة أخرى. سينتهي كل شيء.

وفي داخلها ابتدأ الألم يتصاعد. ولكن، عندما يرحل، ستتغلب على هذا الألم. ستستعيد ذاتها مرة أخرى.

وضع يديه مرة أخرى في جيبيه. وتراجع عنها. حدقت في صدره دون ان تستطيع التحديق في وجهه. كان الذعر يملأ نفسها دون ان تعلم ما الذي كان يخيفها أكثر... هل هو رحيله عنها... أم ان يعود فيمسك بها ليكتشف مقدار الشوق الذي يملأ قلبها إليه. إنها تريد الحب عندما لا يحوي الحب أي خطر مثل هذا... تريده مع عواطفها الجامحة، حبيساً فوق خشبة المسرح لا غير.

الفصل العاشر

حنت لاجيتانا رأسها عندما تلاشى صوت الموسيقى. وعندما انتهت من انحناءة الاحترام تلك، ارتج جسدها من صخب الجمهور، وهي تفكر في ان هذا هو ما سيكون على الدوام، وان ما تريده حقاً، هو ان تكون بمفردها كلما تلاشى صوت الموسيقى.

التصفيق والصراخ والهتاف. كانت مدينة مكسيكو تهتف للغجرية بكل حماسها. وكان ميكيل يبتسم خارج خشبة المسرح وقد رفع يده باشارة النصر. وكانت الأم جالسة على كرسي يجعلها تشرف على المسرح، كما يمنحها الراحة في نفس الوقت.

وصاح ميكيل: «رائع.» واختلط صوته بصخب الجموع. وأعاد ماريا مرة أخرى نزولاً عند رغبة الجماهير... وكان على استعداد ليعيدها اكثر من مرة لو أرادوا. فقد سبق واتفق معها على هذا أثناء التدريب. وكذلك على الأغاني التي سيقدمونها. لاجيتانا، وهي أول أغنية سجلتها. سبق وغنتها في المكسيك وفي الولايات المتحدة. كما أذيعت على التلفزيون في برنامج منوعات ظهرت هي فيه. وهذه الليلة ستنقل الحفلة بالقمر الصناعي إلى المكسيك. لكنها اغمضت عينيها وهي تلقي برأسها إلى الخلف دون أن تسمح لنفسها بالتفكير فيما لو كان هو موجوداً يراقبها. لا بد انه في بلد آخر، الآن. ولماذا تظن انه سيتفرج على

تلفزيون المكسيك؟ إنه إذا فعل، فسيتفرج على البرنامج الثقافي.

وعندما انتهت الأغنية، غادرت المسرح، ولكن الهدير تصاعد يطلبها مرة أخرى. ورأت ميكيل يسير إلى اميليو الذي كان واقفاً شمال خشبة المسرح. عندئذ، أدركت نوع الأغنية التي كان الجمهور يطلبها.

إنها أغنية الحب في لشبونة.

همست: «كلا.» ولكن الموسيقى كانت قد بدأت في عزف موسيقى الأغنية التي كانت قد رفضت ان تغنيها هذه الليلة.

وعادت إلى الموسيقى. إنها الأغنية التي رأت وهي تغنيها، ذلك الرجل الذي كان يراقبها لأول مرة. ولكنه الآن لم يكن موجوداً ليراقبها، ولن يكون بعد الآن. وهنا، في قاعة الموسيقى الهائلة هذه، كان مستحيلاً على ميكيل ان يزاول خدعه كالمعتاد في الاضاءة.

كانت كاتي، كاترين جينان دي كورسيكا، هي المرأة التي تحتل قلبه. إنه لم يستطع إنكار ذلك. ولكنه أراد أيضاً ماريا. لقد أرادها... وهي أيضاً أرادت...

لقد قال انها لا تدري ما الذي تريده. ولكن، في آخر نفحات أغنية الحب التي كانت تعلم انها ستتصاعد في الفراغ، كان يوجد ما ظفرت به لنفسها. لقد أحبت ريكاردو. أحبته بعنف لم تكن تعتقد بامكان حدوثه. وكان من قوة حبها الجنوني ذاك، أن أصيبت بكل ذلك الذعر الذي جعلها تطرده بعيداً من حياتها. وهو الذي كان يدفعها إلى الصراخ في وجهه في منزلها ورشقه بالكلام الجارح، إلى أن تلاشى سحرها الذي جعله يطاردها.

لقد أرادها منذ البداية... وكان حبه شهوانيا، ولكن، لو أنها تزوجت منه، لكان من الممكن جداً ان تتحول شهوته تلك إلى حب عميق.

أو ربما بقي سنوات يتمنى لو كانت امرأة مختلفة، وذلك ما كانت هي تهرب منه، هذا إلى ادراكها مبلغ العمق الذي تملكها هو به. لقد ظنت أن حياتها ستعود كما كانت قبل ان تلقاه. وأنها، في خلال شهر واحد، ستتمالك نفسها وقدرتها على الاستمتاع باسرتها وحياتها كما كانت قبل ان يخترق هو ذلك الحاجز القائم بين المتفرجين وخشبة المسرح.

ولكنها كانت مخطئة. إنها لم تحلم بمقدار الألم الذي شعرت به. لم تدرك ان عشاقاً آخرين سيحيطونها بهذا الشكل، يذكرونها بمن طردته من حياتها. وعندما ينكر ميكيل اسم زوجته، تلمس ماريا في صوته شيئاً أكثر من مجرد المودة أو العطف، تلمس ذلك الشيء الغامض المبهم الذي يجعل الرجل والمرأة يتحدان، مواجهين العالم أجمع. وإميليو يتحدث عن ابنة اخت السيد ديسكانسو بعينين شاردتين، وكأنما يستعيد باسمها صورتها في كيانه. ومنظر امها الحزين لأحلامها المنهارة. ولكن، بالرغم من تخيلات وأحلام الرقص، فان ماريا لم يعد عندها الشجاعة لكي تحلم، بعد انطفاء الأضواء في المسرح ومغادرة المتفرجين إلى بيوتهم.

وأحاط بها ميكيل واميليو وهي في طريقها إلى غرفة الملابس. وكانت الأم تتحدث عن الأزهار. وشعرت ماريا بقلبها يتوقف عن الخفقان. ودخلت غرفة الملابس تبحث

عن ازهار معينة. أزهار ريكاردو. الورود الحمراء التي اعتاد ارسالها.

أزهار الأوركيد على منضدة الزينة. وورود أيضاً. بيضاء و... وحمراء. واندفعت ماريا، مقتحمة أخويها إلى منضدة الزينة.

وورود حمراء وبيضاء، ووردية. كلها مجتمعة في باقة واحدة.

وهمست: «من أرسل هذه الأزهار؟» ولم يسمعها أحد. ومدت يدها إلى البطاقة داخل الأزهار، ولكن الأمل تلاشى. إنها من السيد والسيدة ديسكانسو. إنها ليست من ريكاردو الغليظ.

مدينة مكسيكو. لقد سبق وتحدثا عنها بما فيه الكفاية. تحدثا عن مجيء ريكاردو إليها في تلك المدينة. لقد قال انه سيلحق بها إلى هناك مطالباً بما تعده عيناها حسب قوله. لقد وعد بذلك على الشاطىء قرب سان جوزيه ديل كابو، وكان يريد ان يتزوجها بعد الرحلة. ولكن، مع انه دعاها بحبيبته بالاسبانية، فانه لم يقل قط انه يحبها... كما أنه لم يطلب منها أن تعلن له حبها.

لقد طالب بها. وكان هذا هو السبب في شعورها بكل ذلك الخوف من تسلطه عليها. لأنه كان متعدياً وظافراً ومتسلطاً. لقد منحها الرقة والصبر والعواطف المحمومة. ولكنها عندما طردته، مزق ذلك قلبها ولكنه لم يكد يشعره بالغضب.

واغتسلت لتنفض عن جسدها حرارة وعرق الرقص والغناء. وعادت إلى هدوئها عندما فتح الباب للزائرين

ذوي الأهمية من المتفرجين. وكان ميكيل وإميليو يختلطان بهم، يراقبان ما قد يحدث من مشكلات، ثم يخرجانهم عندما تنتهي الربع ساعة المسموح بها للزيارة. وأحضر ميكيل لماريا كأساً أخذت ترشف منه متمهلة. إنها مياه معدنية. كانت ترشف المياه وتومىء برأسها دون ان ينتظر منها أحد كلاماً أو جواباً. وكان يكفيهم منها ابتسامة او ايماءة، او موافقة منها على اغنية تغنيها اثناء الاداء. وأجابت بالموافقة على ذلك. رجلاً عبوساً كان يجلس امامها، دون ان تنتبه إلى ما كان يقوله لها.

واستدارت مبتسمة إلى الرجل التالي.

كان ثمة امرأة شقراء رائعة الجمال تجلس بجانب رجل وضع ذراعه حولها. كانا جوان كورسيكا وزوجته كاتي. وحاولت ماريا ان تبتسم بشكل ما. لقد كان ريكاردو يناديها باسم كاتي. كانت عيناها متألقتين وكان حملها واضحاً حتى في الثوب الفضفاض الذي كانت ترتديه.

استطاعت ماريا ان تقول: «ظننتك قد غادرت مكسيكو؟» ابتسمت كاتي وتبادلت نظرة مع زوجها تألمت منها ماريا. وقالت كاتي: «لقد حجزنا تذكرتين لهذه الحفلة عندما أدركنا اننا سنتوقف في مدينة مكسيكو في نفس الوقت الذي تكونين أنت موجودة فيه. ذلك انني لم استطع مقاومة ذلك بعد ان رأيتك في ماريدا.»

وأضاف جوان كورسيكا بابتسامة دمثة: «نريد منك زيارة اخرى إلى ماريدا قبل أن تتوقف كاتالينا عن الاسفار.» وأدركت ماريا ان كاتي وزوجها الذي كان يدعوها كاتالينا، لم يكونا يوافقان على اسفارها.

وربما لم تكن هادئة أو باردة كما كان يبدو عليها.

هل توصل ريكاردو إلى معرفة ذلك؟ وقال جوان وهو ينحني لماريا: «لقد كانت حفلتك رائعة.»

فقالت ماريا: «أشكرك. هل... هل ريكاردو بصحبتكما؟» وضاقت عينا كاتي، وأدركت ماريا انها ما كان لها أن تلقي هذا السؤال. وحاولت ان تجعل السؤال عفوياً، ولكن، لا بد ان صوتها قد نم على شيء ما.

وقالت كاتي: «آخر ما علمت به انه منغمس في قسم الآثار في جامعة لوس أنجلوس.»

فقالت ماريا بضعف: «ظننت انه لن يعود إلى هناك.»

وقال جوان فجأة: «لقد أرسل إلى كاتالينا عشرين الف بيزوس.»

فأومأت ماريا برأسها بارتباك وعدم اهتمام. لقد عاد إلى الجامعة. إنها عاطفته المحمومة نحو الغموض ولكن غموض لاجيتانا قد تلاشى الآن ونسي هو كل شيء عنها.

قالت كاتي لزوجها: «جوان، إنني لاأظن...»

فهز زوجها رأسه قائلاً: «إنك مخطئة. أنت تعلمين.» ولمس كتف زوجته وكأنه يطمئنها، وتابع: «لقد تدخل ريكاردو مرة بيننا» وابتسم لهذه الذكرى، ولكن يبدو ان ثمة شيئاً آخر بينهم لم يظهر في ابتسامة جوان وعبوس زوجته القلق. وأشاحت ماريا بوجهها. لم تعد تستطيع احتمال المزيد من هذا.

ووضعت المرأة الشقراء يدها على كتف ماريا قائلة: «أظنني يجب ان أخبرك عن هذا الرهان. إنه كان في ذلك المطعم حيث سمعك ريكاردو تغنين، لأول مرة. لقد ذهبنا

إلى هناك لأن البروفيسور تالامتس رأى انك تؤدين حفلاتك هنا، وأراد ريكاردو ان يكرمه بدعوته إليها.»

وهزت ماريا رأسها وهي تهمس: «كلا. لا أريد ان أسمع.» هل كل هذا لم يكن سوى مزحة رهيبة؟ حب ريكاردو لها، لم يكن سوى رهان على مائدة شراب في مطعم لاكازا ديل فينيتو؟

توقفت الفوضى في قاعة المحاضرات لحظة دخول ريكاردو الذي وضع رزمة صغيرة من الكتب على منضدة، ثم صعد إلى المنبر. وتطلعت انظار الطلاب نحوه منتظرين.

كانوا تلامذته، ولكنه لم ير سوى القليل منهم هذا المرة. كان جيري قد تلقى محاضراته عندما كان ريكاردو في ماريدا، ومنذ عدة أسابيع فقط، كان ريكاردو غير واثق من امكانية عودته، إلا لإلقاء عدد قليل من المحاضرات للتأكد من عدم تركه للدائرة التي كان هو رئيسها، في الفوضى.

وبسط اوراقه وابتدأ يتكلم عن «الهاب»، وهو التقويم الشمسي للسنة الغامضة لشعب المايان. ما الذي جعله يتجه هذا الاتجاه؟ لقد عرف منذ اللحظة التي استلم فيها مناجم أبيه، أن هذا العمل لم يكن يميل اليه. وكان أبوه رجلا طموحاً يكره الخسارة. كون حياته بطموحه ورغبته العنيفة في ان لا يخسر ممتلكاته. وكانت والدة ريكاردو في عداد تلك الممتلكات. وقد علم ريكاردو منذ حداثته، أن والدته قد سقطت في شرك زواج ندمت عليه.

مزيج من الحضارات. فوالدته نشأت في الاكوادور بين التقاليد الاسبانية، ووالده من مجاهل شمال كندا. كانت أمه غنية بالوراثة، بينما كان أبوه رجلاً عصامياً طموحاً. ولم

يكن بينهما اي تفاهم وهذا ما جعل ريكاردو يأخذ درساً عن ظهر قلبه منذ صباه، إلى حد أنه منذ سنة، وكان في التاسعة والثلاثين، لم يكن يعتزم الزواج. وكان دوماً يحدث نفسه بأنه، إذا ما تزوج، فستكون زوجته من بيئته التي يختارها. أميركية أو كندية. امرأة تهتم بالأشياء التي يهتم هو بها، وتتوقع من الزواج نفس الاشياء التي يتوقعها هو منه.

وبدت له الدكتورة كاترين جينان مثالية في هذا الشأن. كان قد رآها في البداية، في برنامج تلفزيوني. فأعجب بهدوئها، وأثار فضوله ان تجمع فتاة نحيلة تبدو حديثة السن، كل هذه الدرجات الجامعية. وعندما صمم ان يطلبها لتصوير حفريات الياكاتان كان يريد ان يجتمع بها. وعندما التقاها، كان يأمل في ان يكونا أكثر من مجرد صديقين وزميلين.

كانت هي المرأة المثالية في نظره. فقد كانت تشاركه اهتمامه بالآثار. كما أنها نشأت في بلاد، شعبها ذو حضارة هادئة عقلانية. وقد أحب فيها صداقتها الصريحة. مما جعله يشعر نحوها بمودة فائقة.

وقد شعرت هي نحوه بالمودة، كذلك. لكن، لم يبد من ناحيتها اي دليل على شيء غير هذا. وأدرك هو ذلك منذ البداية تقريباً. ولكنه مع هذا، حاول اقناعها، ظاناً أن المودة يمكن ان تتطور إلى شيء أكثر... إلى ان أدرك انها سبق ووقعت في حب رجل آخر. وعندما وجد ان كاتي مغرمة، أدرك أنها لم تكن المرأة الهادئة العقلانية التي ظنها. ربما يغير الحب من طبائع بعض الاشخاص فيحولهم إلى أشخاص وحشيين غير عقلانيين.

وقد كان لريكاردو دور في زواج كاتي وجوان، الذي أحاطهما هما الاثنان، بهالة من السعادة لا تخطئها العين. فقد كان سبباً في جمعهما معاً. ولكن، مع سروره برؤية سعادتهما، فقد احس بشيء من الراحة لأنه لم يكن هو الزوج... وأنه احتفظ بتوازن حياته. وأن ليس لامرأة ان تفعل به ما فعلت كاتي بزوجها جوان دي كورسيكا.

وسألته طالبة في الصف الثاني: «ولكن، لماذا دعيت بالسنة الغامضة؟»

وللحظة، أخذ ريكاردو يتساءل عما كانت الفتاة تتحدث عنه. لقد كان يتحدث بشكل تلقائي متابعاً ملاحظاته المدونة، ولكن الوقت قد حان لأن يركز عقله في ما يفعل. إذ لم يكن من العدل، بالنسبة للطلاب، ان يشرد عقل استاذهم مع امرأة تبعد عنهم آلاف الأميال. عالم بعيد.

لم يكن مشاهدة الحفلات الموسيقية التي تعرض على شاشة التلفزيون، من عادته، ولم يدرك أنها ستظهر على شاشة التلفزيون إلى أن دخلت كاتي مكتبه منذ اسبوع.

وقالت مشرقة الوجه: «إنني وجوان، سنسافر إلى ماريدا لقضاء عطلة الأسبوع.»

فقال باسماً وهو يراها متضرجة الوجه: «شهر عسل آخر؟»

فهزت كتفيها باسمة: «حسناً، إننا نحب ماريدا.»

وكان يفترض ذلك، فقد كانت ماريدا هي المدينة التي صمما فيها على الكف عن تعذيب الواحد منهما الآخر، ليرتبطا بحبل الزوجية. وفي مطار ماريدا نظرت كاتي إلى وجه ريكاردو قائلة: «إنني سأتزوج.» وبعد ذلك، كان ثمة

احتفال بسيط ولم يكن ريكاردو بين الحضور ولكنه رآهما معاً في المطار وعلم بارتباطهما.

وماريا...

لقد قال لكاتي في الأسبوع الماضي: «إستمتعي بوقتك. إن الطفل سيولد في الشهر القادم أليس كذلك؟» فأجابت: «نعم. وهذا آخر سفر لي. سنذهب إلى ماريدا ونعود عن طريق مدينة مكسيكو. لقد ابتعنا تذكرتين لحضور حفلة لاجيتانا هناك. كنت سأراقب الحفلة من منزلي في سان فرنسيسكو حيث ستعرض على التلفزيون بواسطة القمر الصناعي، ولكنني تذكرت اننا سنمر بمدينة مكسيكو في أول ليلة تعرض فيها حفلاتها.»

ماريا... الرقص. وشعر بالالم في اعماقه، مدركاً بأن هذا الالم لن يتلاشى في وقت قريب. كان ذلك حين أخرج من جيبه محفظة نقوده. كان ما يزال محتفظاً فيها بورقة نقد مكسيكية دون تبديل وكأنه كان يعتزم العودة. ولكن لم يعد ثمة سبب لذلك الآن. فقد سلمت حفريات التنقيب عن الآثار هناك إلى جامعة ماريدا، وبالنسبة إلى ماريا... لقد كان معتوهاً إذ ظن أن ذلك كان عملاً صائباً، فقد كانت نشأتهما مختلفة، وكذلك ثقافتهما.

وأخرج ورقة النقد وناولها لكاتي. نظرت إليها مرتبكة. وسألته: «أظنك تريدني أن أستبدلها لك. سأعطيك دولارات بدلاً منها، وسأصرفها...»

فقاطعها: «كلا. بل أنا مدين لك بها.»

وهزت هي رأسها مستفهمة، وتابع هو: «هل دفع لك البروفيسور تالامتس ذلك الرهان؟»

ابتسمت قائلة: «حسناً، لقد فعل.»

فقال: «أعيديها له، فقد كان الحق معه.» ووضع الورقة النقدية في كفها.

واتسعت عيناها دهشة وهي تقول: «لاجيتانا؟»

فقال: «ماريا. نعم.»

فسألته: «هل ستتزوج...؟»

أجاب: «كلا... ولن يكون ذلك. ولكن الحق كان معه. إذاً، أعيديها إليه عندما ترينه.»

وعادت الطالبة، في قاعة المحاضرات، تسأل باصرار: «ولكن، لماذا؟ لماذا لم يستنتج شعب المايان وهم ذوو الحساب الدقيق للحركات الشمسية، بان ثمة ربع يوم زائداً في سنتهم الشمسية؟»

وسمع نفسه يشرح لهم الأمر. وكان قد شرحه من قبل. لقد كان يستمتع دوماً بمراقبة فضول الطلاب بالنسبة للتاريخ وللشعوب التي عاشت قبل ان تظهر سفن الفضاء والبناء الخرساني.

ولكنه كان يشعر بالتعب الآن من ذلك. كان متعباً من كل شيء. بدا له كل ذلك باهتاً لا لون له.

لكنه افترض انه كان دوماً باهتاً دون لون هكذا ماعدا أنه لم يكن يدرك ذلك، حتى رآها ترقص، وحتى سار معها في الكرنفال ورآها تضحك، ورأى وجهها يتألق اعجاباً بحقائب مجدولة رائعة الجمال معلقة في كشك. كانت ترى العالم مليئاً بالألوان والجمال والمشاعر. وعندما وقف بجانبها، أمكنه هو أيضاً أن يرى الألوان ويشعر بجمالها. لو أنه ذهب إلى مدينة مكسيكو لكان أرسل إليها وروداً،

فتراها في غرفة الملابس في المسرح بعد العرض، ثم...

ثم ماذا؟ يلاحقها مرة أخرى؟ واهتز جسده وخشن صوته لدرجة توقف معها الطلاب عن القاء الأسئلة. وقلب صفحة من أوراقه متصنعاً التركيز. ما الفائدة من ملاحقتها مرة أخرى؟ ربما باستطاعته إيقاعها مرة أخرى، بشراكه، فيوقظ خيالاتها وتصوراتها. وهذا كل ما حدث. وعندما يشرق الصباح، تنطلق هي هاربة بعد أن تتذكر كل مالا تريده.

متى أصبح هو رجلاً يسعى ليمتلك امرأة يشتهيها؟ لماذا أصبح كونها عشيقة له، غير كافٍ، متى كان واقعاً في سحرها إلى حد جعله يقضي أربع ساعات في مخابرة معارفه ليستعير صحن قمر صناعي لكي يمكنه رؤية حفلتها من مدينة مكسيكو على شاشة التلفزيون، وذلك منذ أربع ليالٍ؟

لاجيتانا، ولكن، وهو ينظر إليها، رأى فيها فتاته ماريا... المرأة التي وقفت على الشاطىء تحدق في نافذته... الفتاة التي سبحت هاربة منه... وقد تملكتها العصبية رغم وقوعها في الفتنة... الفتاة على الشرفة التي تجاوبت مع قبلته ليجمدها الذعر بعد ذلك لذكريات لم يخطر له على بال انها كامنة في أعماقها... الفتاة التي أمسكت بيده على الشاطىء في شمال ماريدا، وكانت تضحك عندما يبتسم هو. الفتاة التي نظرت إليه من فوق رأس الفتاة الصغيرة، نيتا، لتجعله يتوق إلى طفل منهما هما الاثنان، يقف بينهما.

وفي نهاية قاعة الموسيقى، غنت هي أغنية الحب التي جعلته، لأول مرة، يؤمن بأنها ستكون له. لقد كان أحمق إذ

يراقب صورتها على شاشة التلفزيون فيعذب نفسه بالذكريات والرغبات التي لم تسنح لها فرصة التحقق.

وقال يذكر طلابه وهو يصرفهم: «إن اوراقكم ينبغي تقديمها يوم الجمعة القادم.»

بدأوا يتفرقون. وتقدم بعضهم نحوه يلقون عليه بعض الأسئلة التي علم منها أن محاضرته كانت اكثر سهولة وترابطاً مما كان يظن.

وسأله رجل غير صغير السن، كان يحضر المحاضرات لتوسيع أفق مداركه: «... ألا توافق؟»

سأله ريكاردو: «على ماذا؟»

وخلف مجموعة الرؤوس ظن انه يرى شيئاً. كان شعراً أسود كثيفاً... هل سيمضي بقية حياته يتألم كلما رأى فتاة ذات شعر أسود كثيف؟ وفكر في قطعة ورق في محفظة نقوده، حيث يوجد عنوان دونه هذا الصباح بعد مخابرة هاتفية. ما الذي سيجعل الأمر مختلفاً إذا هو عاد إليها؟ لقد قالت له بوضوح بالرغم من تجاذبهما، أن ملاحقته لها يعذبها. لقد انتهى كل شيء. الأحمق وحده هو الذي يعود.

وحاول أن يستمع إلى ذلك الرجل. ولكن الشعر الاسود الكثيف اقترب منه الآن، ليلمح شيئاً أحمر، وكان هذا لونها.

لو أنه كان أحمق، فليكن هذا. لم يكن ثمة خيار كما يبدو.

ربما لم يكن ما ترتديه، مهماً، ولكنها غيرت ثيابها ثلاث مرات. في المرة الاولى ارتدت سروال جينز وقميصاً قطنياً، إذ كان ذلك يناسب زيارة إلى الولايات المتحدة. انها تذكر ان جميع الطلاب كانوا يرتدون الجينز.

ولكنها لم تكن طالبة، فلو انها ارتدت كواحدة منهن،

فسيعرف ان ذلك زي رسمي. لهذا استبدلته بمعطف قاتم ولكن كان عليها ان ترفع شعرها عالياً ليبدو مناسباً، مما جعلها غير راضية بمظهرها اذ لم يكن يناسبها على الاطلاق.

وخلعت المعطف ونزعت المشابك من شعرها، لترتدي الثوب الأحمر. كان مصنوعاً من القطن بسيط التفصيل ذا تنورة واسعة تدور حولها قليلاً اثناء سيرها. وكان القسم الأعلى مقفلاً بأزرار، وتركت الزر الأعلى مفتوحاً لتبدو قطعة ذهبية واضحة للعيان. وكان أبوها قد اهداها هذه القطعة الذهبية في ذكرى ميلادها الخامس عشر. ومنذ ذلك اليوم وهي لا تفارق جيدها.

سرحت شعرها وكان كثيفاً، واضعة فيه مشطين لينسدل على ظهرها.

وعبست لصورتها في المرآة. ولكنها لا تريد أن تكون شقراء ولا باردة. وبدت غريبة أجنبية. وكانت يدها ترتجف وهي تضع أحمر الشفاه. ولم تضف أية زينة أخرى على وجهها. فبشرتها لم تكن بحاجة إلى ذلك كما أنها لم تكن صاعدة إلى خشبة المسرح.

واستقلت تاكسي من الفندق إلى الجامعة. وكانت تعرف ان عمتها المقيمة في لوس أنجلوس، ستستاء إذا هي عرفت ان ماريا جاءت إلى لوس أنجلس دون أن تحاول رؤيتها. ربما سيكون ذلك في ما بعد، فهي لا تحتمل كثرة الأسئلة الآن.

لقد قالت كاتي انها شعرت بالأمان تماماً وهي تراهن بعشرين ألف بيزوس أنه لن يسقط تحت سحر الفجرية

الجميلة. وهذا أقل من عشرة دولارات أميركية. ذلك أن ريكاردو كان بارداً على الدوام بالنسبة للنساء، حسب قول كاتي. ولكنه لم يكن بارداً معها هي، ماريا...

لقد قال لها ريكاردو: «لو أنك أردت افكاري ومشاعري، فأنت تعرفين جيداً كيف تخرجينها من أعماقي.» وكان صوته غاضباً قوياً.

وقول ميكيل: «إنه لن يعود الآن. عليك ان تذهبي أنت إليه حالاً.» بينما كانت نفسها تنكر عليها ان تذهب مستجدية أي رجل.

وقول جوان كورسيكا: «لقد كنت دوماً آمل يوماً ما أن أرد اليه جميله...»

كلا، من الحماقة إعادة ذلك التعليق. ومن أين لجوان بأن يعرف ما في قلب ريكاردو.

قالت كاتي بثقة: «إنه يحاضر يوم الاربعاء في الساعة الثانية عندما يكون في الكلية.» وأرشدتها كيف تصل إلى قاعة المحاضرات، ولكن، يظهر ان ماريا سلكت طريقاً خطأ من مكان ما. ثم رأت رقماً على باب مغلق. وعندما فتحته، سمعت الصوت الذي جعل قلبها يكف عن الخفقان. وعندما دخلت القاعة، شعرت بنفسها عرضة للأنظار. كانت متأكدة من أنه سيرفع ناظريه ويراها أمام الباب. وربما سيخبرها بخشونة، انها لاتنتسب إلى محاضراته. وأنها ليست طالبة.

ماذا لو أنه نظر إليها وقد بدا الضيق في عينيه؟ أو الكراهية؟

وجلست على كرسي في الممشى بجانب شاب ذي شعر أحمر أطول من شعرها هي. كان ريكاردو يتحدث عن

التقويم السنوي لشعب المايان. ونظرت حولها لترى الطلاب جميعاً واقعين تحت سحر ذلك المحاضر الوسيم الفارع القامة القوي الشخصية والذي يقف على جانب المنبر متحدثاً عن العلوم الغامضة لذلك الشعب ذي الكبرياء.

إنه لم يتحدث اليها، في الواقع، عن أشياء كهذه ماعدا في ذلك اليوم في منطقة الآثار. ربما لم يكن يظن ان هذا قد يهمها. فقد كانت أوقاتهما معاً حافلة بالتوتر والارتباك، والخوف من جانبها... الخوف من أن تبدو غبية إذا هي القت عليه سؤالاً خطأ. ذلك أن معرفتها قليلة بهذا العالم الذي يفتنه.

وارتفعت يد من الصف الأمامي، ووقف ريكاردو، ويده في جيبه، يستمع إلى السؤال الذي أدركت، حتى هي نفسها، أنه لم يكن ينم عن فطنة. وأجاب هو عليه بجد، لتدور مناقشة قصيرة بينه وبين بعض الطلاب. ليعيد انتباههم بعد ذلك، بحزم إلى الموضوع الذي كان يتحدث عنه. وفكرت ماريا في أن الطلاب الذين كانوا يوجهون إليه الاسئلة، قد وقعوا الآن تحت تأثيره، هذا إذا لم يكونوا قد وقعوا قبلاً.

وجعلت تنظر إليه بعين ناقدة، فلم تجد فيه أية ناحية ضعف. فقد كان يقف هناك يحدثهم عن الماضي، وإذا ما ألقى عليه طالب سؤالاً ما، فان السرور بفضولهم يحمله على الابتسام. كان معلماً طبيعياً خالياً من التكلف. ولا بد أنه سيكون أباً رائعاً يحسن قيادة اولاده دون خشونة او عنف، تماماً كما قادها إلى حبه دون أن يثير مخاوفها بارغامها على شيء.

واحتضنت نفسها بذراعيها شوقاً إليه، لتنتبه حالاً إلى

غرابة ما تصنع والشاب ذو الشعر الطويل ينظر إليها بفضول وهو يسألها: «هل أنت بخير؟»

فأومأت بالايجاب. كان الرعب يملؤها. ذلك ان ريكاردو سينتهي من المحاضرة خلال دقائق. ولم تكن تعرف كم تستغرق المحاضرة، ولكنها فهمت من كلامه أنه في طريق النهاية، إنهم سينهضون جميعاً، فماذا يفعل ريكاردو؟ هل يستدير ليذهب من خلال ذلك الباب القائم خلف منبر المحاضر؟ وهل سيكون بامكانها ان تجد طريقها بين التلامذة في الوقت المناسب قبل ان يختفي داخل الممرات التي لا نهاية لها في هذه البناية؟

واذا هي وصلت إليه، فما الذي ستجده في عينيه؟ هل سيطردها كما طردته يوماً من حياتها؟ هل مازال يريدها الآن؟ وإذا كان ذلك، فماذا سيكون في داخل قلبه؟

وشعرت بالرجفة وهي تسمعه يتحدث عن تقديم أوراق المحاضرات يوم الجمعة، واقرت لنفسها بمدى جبنها. لقد استمرت في الهرب سنوات. هربت حين أحال والاس أحلام المراهقة عندها إلى كوابيس. كان يمكنها أن تبقى وتتابع دراستها الموسيقية وكأن شيئاً لم يكن... ولكنها هربت، وأخفت نفسها خلف أخويها، متجنبة أي احتكاك آخر بالرجال بشكل انفرادي، خائفة من مواجهة عواطفها رغم علمها ان ليس كل الرجال مثل والاس.

ولكنها كانت خائفة، شعرت بالضيق عندما اخترق ريكاردو الحواجز إليها، وازداد رعبها عندما علمت ان اكبر خطر عليها انما هو يكمن في داخلها. لقد كانت فريسة لريكاردو سوان. ذلك انها عرفت معه الحقيقة التي كانت

اكثر الاشياء رعباً. لم تستطع ان تهرب منه. كانت سيطرته عليها وعدم قدرتها على الهرب منه، كل ذلك كان ينبع من داخلها هي. كانت خطورته عليها لانها لم تستطع التخلص من تأثيره على قلبها. لقد كان ميكيل كافياً لكي يمنع الرجال من الاقتراب منها، ولكنها لم تكن لتهتم لهم ذلك لأنها لم تقع في غرام أي منهم.

لكنها وقعت في غرام ريكاردو.

وربما كان ذلك الغرام قد ابتدأ منذ اللحظة الأولى التي تقابلت فيها نظراتهما في ذلك الضوء الخابي في مطعم لاكازا ديل فينيتو. ولكن ما كان متوقعاً، هو أن تهرب من تلك الحقيقة، كما اعتادت ان تهرب من كل شيء منذ اللحظة التي علمها فيها والاس ان الأحلام لا تتحقق على الدوام. فتعلمت ذلك الدرس جيداً إلى درجة احتفظت بكل أحلامها على خشبة المسرح طوال السنين الماضية.

كانت اكثر جبناً من أن تحاول تحقيق الحلم الذي قدمه ريكاردو إليها. وهو الزواج من رجل كان أكبر من كل أحلامها. ثمة شيء اكثر روعة وإثارة من الزواج من رجل أبدل مخاوفها إلى سعادة وطمأنينة؟ رجل لم تلمس فيه أية نقيصة أو شائبة؟

ألم يقل لها: «إذا أردت أن تعرفي أفكاري ومشاعري، فما عليك إلا ان تثيريها لتطفو إلى السطح...»

وفي آخر مرة رأته فيها، كان ثائر الغضب. ما الذي كان يكمن وراء غضبه ذاك. لقد قالت كاتي إنه كان متصفاً بالبرود... ولكنه لم يكن بارداً مع ماريا.

كانت تقف مع الآخرين متجمدة. وتحركت نحو مقدمة

القاعة، وكان بين المقاعد درجات جعلتها ترى رأسه حين اقتربت منه. واستدار هو ونظر إليها، ثم أشاح بانظاره بعيداً.

هل رآها؟

وعضت على شفتها بشدة وتابعت تقدمها. إنها مغامرة، كانت امرأة قد تعلمت ان لا تجرب حظها مع الرجال. ولكن، لم يبق امامها أي خيار إذ ان تراجعها كان يعني عودتها إلى حياتها الأولى من دون الرجل الذي تحب.

ثم لم تعد تراه إذ كانت قد أصبحت الآن في أسفل السلم وكان حولها مجموعة من الطلاب طوال القامة يحيطون بالاستاذ المحاضر. وعندما دفعت من امامها رجلاً أسود الشعر طويل القامة يشبه ريكاردو، نظر إليها هذا وهو يتمتم بشيء ما.

وهزت رأسها ثم تابعت طريقها. لم تتأكد مما قاله، ربما كان يسألها عما إذا كانت هنا من قبل، ربما كانوا سيلقون بها خارجاً لو لم تكن كذلك.

أصبح ريكاردو الآن، أمامها مباشرة. وكان رأسه مائلاً إلى جانب بعيد عنها، وقد وضع يداً في جيبه وأمسك باليد الأخرى ملف اوراقه، التي كانت تحوي الملاحظات فقط لتذكره بالمواضيع التي كان يفيض بالحديث عنها غيابياً بكل ثقة الرجل بعلمه الغزير.

وأومأ برأسه للشاب الذي كان يتحدث اليه. ثم لمس شخص ما ذراعه قائلاً شيئاً ما. ليمضي كل شيء بهدوء وثبات.

وتشابكت نظراته بنظراتها...

ولم يقل هو شيئاً، حتى ولا كلمة واحدة. لقد وقف فقط، يحدق فيها بينما كانت هي تحاول ان تقنع نفسها بأنه يريدها هنا، أمامه على بعد ذراع منه فقط. ولكنها حدقت في عينيه، ورأت مشاعر لم تستطع إدراك كنهها. أهي غضب؟ أم نفاد صبر؟ وابتلعت ريقها مرة بعد مرة، وهي تفتش في ذهنها، عبثاً، عن الكلمات التي كانت قد هيأتها سلفاً، لتقولها.

«مرحباً يا ريكاردو... مساء الخير...» كان ثمة شخص يتكلم. ورجع الصوت إلى ماريا فجأة، وأدركت أن المرأة المرتدية ثوباً أزرق كانت تكرر سؤالاً... شيئاً يتعلق بالكمبيوتر والتلسكوب لتأكيد مقاييس شعب المايان.

وتقدم ريكاردو نحو ماريا. لم يفه بكلمة، ولكنها ظنت، من النظرة التي بدت في عينيه، أنه ينوي طردها. لم يكن ثمة مكان لها هنا لقد سبق وسألها مرة ان كانت ترغب في زيارته في لوس انجلس، ولكنه لم يكرر تلك الدعوة، بعد ذلك، مطلقاً. حتى أثناء المدة التي كانا يستعدان فيها للزواج، لم يأت على ذكر احضارها إلى الولايات المتحدة كما أنه لم يأت على ذكر مكان اقامتها المقبلة. وهي تعلم الآن، بعد ما نظرت في عينيه، أنه لم يكن يريد ذلك الزواج أبداً. وتلك الليلة... ما الذي قاله بعد أن حملها من الشاطىء إلى فراشها يمددها فيه فهو لم يكن يريدها إلا عشيقة.

تراجعت إلى الخلف.

توقف هو.

وتجمدت هي.

قال للمرأة في الثوب الأزرق: «أرجو المعذرة، فان لدي موعداً.»

وتقدم نحو ماريا وأمسك بذراعها بالطريقة التي يقود بها رجل، امرأة، هي ملكه، أثناء السير. كان لا بد آخذاً إياها إلى مكان خال ليخبرها انه لا يرحب بها...

وارتجفت وهي تسير بجانبه. إنه لم يلفظ حتى اسمها. وسمعت همساً من شخص ما، «أرأيت يا موللي؟ لقد سبق وحذرتك من أن شخصاً مثله، لا تتركه النساء.»

وفتح باباً دفعها من خلاله متقدمة عليه. وكان الممر في الجانب الآخر أكثر هدوءاً من قاعة المحاضرات. وعند خروجهما، التقط مجموعة من الكتب فشعرت بذراعه تترك ذراعها. وسارا جنباً إلى جنب دون كلمة. وكانت كل خطوة تجعل تبادل الكلام اكثر استحالة.

وهمست: «إلى أين نحن ذاهبان؟»

ووقف على عتبة باب في نهاية الممر. وفتح لها الباب. لتمر. وهو يقول: «إنه مكتبي.» قال ذلك بلهجة من يظن أنها كانت تتوقع ان تكون غرفة تعذيب. ربما قرأ ذلك في عينيها.

ابتلعت ريقها، ثم تقدمته داخلة الغرفة.

الفصل الحادي عشر

قال ريكاردو ببرود وعدم اكتراث: «ما الذي يمثله زيك هذا؟»

كانت قد سارت إلى نافذته تحدق منها إلى ساحة تعج بالطلاب. واستدارت نحوه تنظر إليه ثم سألته: «زيّ؟»

وكان يغلق باب المكتب. ولم يكن في ملامحه ما يوحي بأنه يريد أن يحول هذا اللقاء إلى استقبال عاطفي. عاد يقول وهو يضع المفاتيح في جيبه: «لقد سبق ورأيتك في أزياء متعددة. زي السائحة الأميركية في الكرنفال. ماريا في المنزل ترتدي ثوب الاستحمام دون ان تتوقع زائرين... وماريا الغاوية في ثوب البحر في ضوء القمر...»

وعضت شفتها، وقالت: «وهل تظن ان هذا زيّاً آخر؟» فوضع الكتب على المكتب، وأجاب: «طبعاً.» ومضى يتأملها، ثم قال متفكهاً: «إنك لست لاجيتانا اليوم، ولا عروس البحر التي تقف بثوب البحر لكي تجذبني إلى الشاطىء. ولكن...»

فقالت: «إنه ليس زياً خاصاً.» وأمسكت بيديها تنورة ثوبها وهي تتذكر وقوفها امام المرآة تجرب ثوباً بعد آخر متحاشية ان تبدو بمظهر هادىء بارد مما جعلها تسدل شعرها على كتفيها. وهمست: «إنني ماريا فقط.» أين ذهب تصميمها وهي تقسم ألا تدع عينيه تصيبانها بالارتباك بعد الان؟

وقال: «هل جئت لتخبريني بأنك حامل؟» وشهقت وهي تتمسك بحافة النافذة خلفها، وهي تقول: «هل هذا ما ظننت، حين رأيتني في قاعة المحاضرات؟»

فقال وقد بدا الغضب في عينيه: «نعم.» واستقرت عيناها على وجهه، ثم سألته: «ما الذي ستفعله لو أنني أخبرتك انني حامل، يا ريكاردو؟»

قال: «أتزوجك.»

ارتجفت. ونظرت في عينيه لتدرك السبب في خوفها من الزواج الذي بدا مصمماً عليه. ليس فقط لأنه لم يحبها، ولكن لأنه لم يكن يريد أن يحبها.

فهمست: «إنك لم تطلب مني أبداً الزواج منك. لقد قلت ذلك لأسرتي وليس لي.»

فسألها: «هل أنت حامل؟»

فهزت رأسها نفياً بصمت وهي تدرك ما الذي سيأتي بعد ذلك إذ سيقول لها، لماذا جئت إذن، يا ماريا...؟

وحرك شيئاً على المكتب لم تدرك ما هو، وهو يقول: «لقد استمتعت بحفلتك ليلة السبت.»

فقالت: «إنك لم تكن هناك. إنني أعرف ذلك.» فنظر إليها ورأت شبه ابتسامة على شفتيه. وسألها: «وكيف أدركت ذلك بين تلك الجموع؟»

ابتلعت ريقها وهي تومىء برأسها. حتى ولو لم يرسل اليها وروداً حمراء، فقد كانت ستشعر بوجوده لو كان هناك.

وقال: «لقد رأيتك على شاشة التلفزيون.» وهمست وهي تبلل شفتيها بلسانها: «أوه.» ما الذي كانت تظنه سيحدث

عندما تقابله مرة أخرى؟ هل كانت تظنه سيفتح لها ذراعيه لتندفع هي بينهما هذه المرة دون تردد؟

قال: «أين ستذهبين للعشاء، يا ماريا؟»

فقالت: «إنني... ليس عندي فكرة.» عندها غرفتها الخالية في الفندق، وعليها أن تعود إلى مدينة مكسيكو بعد يومين، ويمكنها ذلك غداً.

وقال: «هل تتناولين العشاء معي؟» ففتحت فاها ولكنها لم تجد ما تقوله. وأومأت برأسها ببساطة.

وسألها: «في منزلي؟»

قالت: «نعم... في أي مكان.»

فقال متعمداً: «إن عندي مكاناً على الشاطىء.»

أجابت: «لا بأس.»

ألقى عليها نظرة غريبة، ولكنه لم يقل شيئاً.

وسارا معاً نحو سيارته خلال ممرات طويلة. وتوقف أثناء ذلك مرتين، ليتحدث إلى بعض الاساتذة. وقدمها إلى واحد منهم طويل الشاربين. لقد ذكر له اسمها وتمنت هي لو قال شيئاً اكثر من ذلك لكي تفهم ما الذي تعنيه بالنسبة إليه. مثلاً، صديقتي... حبيبتي... المرأة التي...

ولكنه قال: «ماريا... ماريا كونسرتا.»

وتكلم الرجل معها بالاسبانية. ثم استقلا السيارة بعد ذلك حيث حاولت هي الاسترخاء.

وسألها: «أين تقيمين؟ أما زالت عمتك تقيم هنا؟»

فأجابت: «نعم. ولكنني أقيم في الفندق.»

فعاد يسأل: «هل أسرتك معك؟»

فهزت رأسها نفياً. فنظر إليها، ولكنها أدركت أنه لم يرها. وقالت: «إنني بمفردي.»

واستمر الحديث بينهما متكلفاً يسوده البرود.

وقاد السيارة شمالاً، ثم اتجه ناحية البحر. وعندما توقف، بقي فترة طويلة، ويداه على عجلة القيادة، قبل ان يقول: «أتريدين ان تعودي إلى المدينة؟»

وتصاعدت خفقات قلبها وهي تسأله: «لماذا؟»

فقال: «إنه بيت على الشاطىء.» أدار رأسه اليها، ومازالت يداه على عجلة القيادة، وهو يقول «إنني لا أريد التفكير في منزل على الشاطىء في لوس انجلوس... إذ قد يثير ذلك كوابيس قديمة لديك.»

فنظرت إلى المنزل الذي توقفا عنده. وفجأة، عرفت معنى سؤاله هذا هنا. وقال: «سنذهب إلى داخل المدينة.» وبدا أن قبضتيه تشتدان على المقود.

فقالت وهي تضع يدها على ذراعه: «كلا. ربما سأبقى دوماً متوترة قليلاً مع الرجال الغرباء، خاصة كبار الأجسام، ولكنك أنت...»

وابتلعت ريقها، ولم تكن متأكدة من أنها ستجد الشجاعة لتقول شيئاً، لكنها استطردت «لا يمكن أن تجعلني أخاف بتلك الطريقة. إنني أعلم انك لا يمكن ان تسبب لي أي ضرر.» وشعرت بالحرارة تصعد إلى وجهها وهي تضيف قائلة: «عندما افكر في... في...» وأغمضت عينيها بشدة، ثم انطلقت تقول: «صرت، عندما أفكر في أن أكون مع رجل، فهذا الرجل هو أنت، وليس والاس. إنه أنت، وضوء القمر، والبيت على الشاطىء، و...» ولم تستطع أن تزيد. لقد جاءت

لتخبره بكل شيء في قلبها. ولكن شجاعتها وقفت بها عند هذا الحد إذ لم تكن متأكدة من رغبته في سماع كل شيء.

ومد يده يلامس وجنتها برقة وهو يهمس: «أشكرك يا ماريا. لم يكن قول هذا سهلاً عليك.»

فقالت: «كلا... ولكنني... أردت أن أقوله.»

فقال: «هل ندخل، إذاً؟»

لقد زال التوتر الذي بينهما الآن، ودخلت معه منزل الشاطىء لترى نفسها بعد فترة، في المطبخ تشوي البصل وتسيل دموعها لرائحته، بينما كان هو يضع قطعتي لحم في المقلاة، ثم تخرج من المطبخ إلى الغرف تتلمس الجلد الذي يغطي الأريكة وخشب مكتبه الناعم الصقيل.

وقالت وهي تقترب من النافذة: «أظن هذا منزلك.»

وكان هو يراقبها، فقال: «لم تظنين ذلك؟» فاستدارت تواجهه وهي تستند إلى المكتب، ثم قالت: «ان الذوقين الأميركي الشمالي، واللاتيني يمتزجان معاً.» كان يراقبها بفضول مجرد في عينيه. ولكنها، وجدت كل ذلك قد تغير ليعود ذلك الرجل الذي كان يراقبها من وراء الحاجز... ولكنه كان، خلافاً للآخرين، في استطاعته ان يقتحم الحواجز التي تحيط بقلبها.

وسألته: «هل تحب كاتي؟ لقد أخبرتني أنك سبق وفكرت... أنك كنت تهتم بها. هل مازلت تحبها؟»

ولم يتحرك. ولكنها لمحت الهدوء يعود إلى عينيه. وعلمت انه يتمالك مشاعره. لقد سبق وقال انها ترتدي أزياء مختلفة. ولكنها ادركت، وهي تتأمله، كيف أنه أدرك ذلك الجزء من شخصيتها الذي يقوم بهذه الأدوار.

وسألها: «هل هذا يهم؟»

لا بد أن تتمسك بالشجاعة فلا تهرب من الحقيقة إذ كان ثمة أمل ما. وهمست: «أظنني أستطيع العيش مع أي شيء آخر، ماعدا هذا... وهو أن تتمنى لو كنت أنا امرأة أخرى.»

كان يحمل في يده شيئاً. لعله كأس كما ظنت، إذ لم تستطع ان ترى ذلك بوضوح حيث كانت عيناها على وجهه لترى ما يرتسم على ملامحه. وترك هو ما بيده، ثم اقترب منها ليقف في منتصف المسافة التي تفصلهما. وقال:

«كاتي... كانت هي المرأة التي ظننت يوماً، انني أريدها.»

سألته: «وهل كانت كذلك حقاً؟»

أجاب وهو يعود فيقترب منها: «كلا.»

كانت لا تزال مستندة إلى المكتب خلفها، وشعرت بأنها إذا هي تحركت، فستفقد توازنها. وأحست بالدوار، وتسارعت أنفاسها.

وقال وقد بانت الخيبة في وجهه: «كان اختياري لها عقلانياً. لقد أعجبت بها وكانت بيننا اهتمامات كثيرة مشتركة... ولكن الحب...» وهز رأسه واستطرد «عندما تشاجرا مرة، وتركها هو بشكل عاصف، جلست تبكي في منطقة الحفريات جنوب ماريدا...» وهز كتفيه ثم تابع: «لقد أرسلت برقية إلى جوان. ولم يكن من الصعب علي التوفيق بينهما مرة أخرى. أما نوع تفكيري الخاص بها فهو، إذا هو رفض العودة إليها، فسأحاول أنا أن آخذ امرأته لنفسي.»

إمرأته؟ لم يكن في عينيه أي أسف وهو يعترف بحق جوان في إمرأته.

وهمست ماريا: «لقد قال جوان انه مدين لك. هل هذا ما كان يعنيه؟ لأنك أعدت إليه كاتي؟»

فقال: «ماريا، هل تتصورين أنك إذا أردت رجلاً آخر، فسأساعدك على الوصول إليه؟» ورأت رجفة تشمل جسده. واستطاعت ان ترى اللهب في عينيه. واستقامت في وقفتها وهي ترفع رأسها عالياً.

همست: «كلا. إنني جبانة حقاً.» وأسبلت أهدابها تخفي مخاوفها.

ومد يده يلقيها على كتفها قائلاً: «أخبريني ماذا تريدين.» ففتحت عينيها لترى شيئاً في عينيه انقبضت له نفسها. كانت في عينيه نظرة تشبه تلك الرقة التي كانت في صوته وهو يعطيها آخر فرصة للهرب، قبل ان تسمح له بنفسها.

وهمست وشفتاها ترتجفان: «ريكاردو... إنني لا أستطيع احتمال عدم رؤيتك مرة أخرى.»

فوضع يده على يدها ملاطفاً وهو يقول: «ستريننني. إنك ستكونين في مدينة مكسيكو في الأسبوع القادم. حسناً، سأكون أنا هناك في الاستديو حيث ستسجلين أغانيك. لقد دعاني السيد ديسكانسو لاكون ضيفه. وقد تدبرت هذا الأمر في اليوم التالي لرؤيتي لك على التلفزيون.»

وشعرت بالدماء تتصاعد إلى وجهها. وقالت: «إنني... لقد بحثت عن ورود منك عندما نزلت من المسرح تلك الليلة في مدينة مكسيكو. وعندما لم أجد...» وعضت شفتها وهي ترمش بأهدابها تمنع الدموع من أن تتساقط من عينيها.

فقال: «ولكنك طردتني. قلت إنك لا تريدينني في حياتك.»

فتنفست بعمق وهي تقول: «كنت خائفة. خائفة مما جعلتني اشعر به. خائفة من أن لا أكون مناسبة لك وأنك، إذا نحن تزوجنا، ربما تندم وسيكون علي ان احتمل رؤيتك تتمنى لو كنت انا امرأة أخرى.»

وأشاحت بعينيها عن عينيه. ثمة سؤال لا تدري هي ماذا عسى ان يكون جوابه عليه إذا استطاعت طرحه. كانت عند النافذة وكان هو خلفها. هذا حسن فهو لا يرى وجهها.

وقال بصوت هادىء: «إنني لن أرغمك على شيء، كما انني لن احاول ذلك أبداً.» لم يكن صوته ينم عما في قلبه.

فاستدارت تقول: «لقد اخترت ان أكون عشيقتك.»

فقال: «إنني أعلم ذلك، يا حبيبتي. ولكن، بالنسبة للزواج... إنك لم تختاري ذلك.»

فقالت وجسمها يهتز: «ولماذا تضغط علي للزواج؟»

فقال: «ما الذي تريدينه مني الآن؟»

استدارت مبتعدة. أرادت ان تخرج من هذا الباب الزجاجي الذي امامها. ان تركض نحو البحر وسيتبعها هو وسيكون هذا أفضل إذ سيزيل حبهما العاصف توترهما.

وسألته: «ما الذي يمكنني ان أحصل عليه؟»

قال: «هل تراوغين في الاجابة؟»

فهزت كتفيها قائلة: «كلانا يفعل هذا. أليس كذلك؟»

فقال: «لماذا؟»

فتنهدت قائلة: «لا أدري لماذا. انني خائفة. جئت لأخبرك... ولكنني خائفة ان ترفض... إنني...» وانقبضت يداها وهي تهمس بعاطفة محمومة: «تباً لذلك...»

وهتف: «ماريا.»

ووضع يديه على كتفيها من الخلف وجذبها إليه، فتهاوت بجسمها عليه. وأغمضت عينيها وكادت تسقط لولا استنادها إليه.

وقال: «ما الذي جئت لتخبريني به؟» فأدارت وجهها تخفيه في صدره وهي تهمس: «هل ستأخذ مني كل شيء؟»

فقال بصوت أجش: «أنا الذي سأعطيك كل شيء.» ووضع شفتيه على شعرها وهو يهمس: «لقد شعرت بالضياع منذ اللحظة التي رأيتك فيها.»

وأغمضت عينيها راجية ألا تنهمر الدموع من عينيها، وهي تسأله بصوت خافت: «الغجرية التي ترقص على المسرح؟»

إنه يريد الغجرية منذ البداية.

فقال: «لقد حدثت نفسي أنني أردت الغجرية... يا عزيزتي، إنني أريدك أنت نفسك. لقد كان علي ان اقنع نفسي... أي شيء، وأية كذبة كانت أفضل من الحقيقة.» وأدارها لينظر في عينيها. وهمست: «أخبرني بالحقيقة الآن.»

فقال: «لقد أحسست بالضياع من أول نظرة. وإلى آخر حياتي. يا غجريتي، بدونك سأستيقظ كل صباح شاعراً بالفراغ في روحي، واستلقي كل ليلة في فراشي أتألم متذكراً حبي.»

وعضت شفتها وهي تنظر إليه هامسة: «ريكاردو، إنني...»

فهز رأسه وأقفل فمها بابهامه قائلاً: «كلا. انا الذي يجب أن أخبرك بهذا. لقد خدعتني في البداية. وحدثت نفسي انني

يجب ان اخترق حجاب غموضك، ولكنني عندما اكتشفت اية امرأة هشة خائفة وراء هذا الحجاب، كان قد سبق السيف العذل، ووقعت في الحب. ومع أنك كنت تخافين من الحب، فقد قرأت في عينيك انك تشعرين بنفس شعوري. وكنت أعلم انني ساتغلب على مخاوفك لو وجد الوقت الكافي. ولكنني كنت مخطئاً إذ أخذت منك ما أعطيتني... أن آخذ حبك البريء وثقتك... أن آخذ كل ذلك منك دون أن أعطيك الحقيقة.»

وشعرت بيديه تضغطان على ذراعيها وبصوته يتهدج.

«الحقيقة؟» سألته وهي تشعر بالخوف. وكان ينظر إليها برقة بالغة.

وأخذ وجهها بين يديه وهمس: «عندما جئت إليّ اليوم، كنت أرجو أن تخبريني... لقد أردت...» وهز رأسه. «وماذا يمكننا ان نفعل عند ذاك، سوى الزواج؟ إنني اعرف ماذا قلت يوم طردتني. ولكن كان لابد أن تتزوجيني. كنت أعلم أن هذا خطأ. وقد وعدتك ان لا أحاول مرة أخرى أن أجعلك تعطيني من نفسك الجزء الذي تخافين ان أشاركك فيه. ولكن...» وجذب نفساً عميقاً وقال معترفاً «سآخذ أي شيء تعطيني اياه من نفسك. إذا شئت ان أكون حبيبك، فسأقابلك في أية مدينة تريدينني ان أقابلك فيها، وسأكون ما تريدينه ان يكون. وإذا أردت... إذا أردت صديقاً فقط، عندذاك... حتى ذاك سيكون أفضل من هذا الوضع! حيث لا أعرف أين أنت وماذا تفعلين... وماذا تتمنين. لأبقى متشوقاً لقربك أبداً.»

وضعت يدها على وجهه، وشعرت بعضلات وجهه تتوتر. وهمست: «انك تحبني. هل تحبني؟» ورأت ذلك في عينيه،

وشعرت بالرجفة في جسده. عجبت من نفسها كيف لم تعرف ذلك. لقد قال انها ستجد مشاعره الحقيقية في نفسه وكان هذا صحيحاً. وجدت ذلك في اثناء أول رقصة معه عندما اشتعل فيها غضب دفاعي.

وقال بصوت أجش: «نعم. إنني أحبك. أظنني كنت دوماً أحبك.»

واقتربت منه ليحتويها بين ذراعيه. وهمست: «إنني جئت لأخبرك انني أحبك.» وسكتت لحظة ثم تابعت همسها: «ريكاردو... عندما رقصت في مدينة مكسيكو...» وهزت رأسها وفكرت ان ليس في استطاعتها ان تخبره، ولكن لاشيء كان بامكانه ان يوقف تدفق الكلمات. وتابعت: «عندما انتهيت من الغناء، تلك الليلة... الليلة التي نقلت إلى شاشة التلفزيون، عندما سكتت الموسيقى وانتهى كل شيء، عرفت ان هذه هي الحقيقة. الغجرية تقف وحيدة، والموسيقى صامتة، وأنت لست هناك تنظر إلي. وأنني سأبقى طيلة حياتي أتألم لفقدان الحب الذي قدمته أنت إلي... ذلك لأنني كنت في منتهى الجبن لكي احصل على ما أريد.»

كانت أصابعه تتخلل شعرها بينما كانت هي تفرغ قلبها أمامه.

وقال بصوت يجيش بالمشاعر مما جعل الدموع تتدفق من عينيها: «هنالك شيء واحد فقط. حبيبتي... ماريا...»

فهمست مجيبة: «نعم؟»

فقال: «هل مازلت تريدين مني طفلاً؟»

فأجابت: «إنني أريد منك كل شيء... انني أريدك أنت... إلى الأبد.»

فنظر إليها بعينين شبه مغمضتين وقال: «هل تتزوجينني؟»

عند ذلك ابتسمت قائلة: «أوه، نعم. إذ لا بد لك ان تتزوجني الآن. إنني فتاة تقليدية كما تعلم. ربما كنت أنت اميركياً عصرياً، ولكنني...»

فقال ببطء: «لست عصرياً إلى هذا الحد. إنني أريد خاتمي بيدك وخاتمك بيدي. وعندما تقفين لتغني حتى يشعر كل رجل سليم العقل، أنه يريد أن يموت في سبيل امتلاكك، عند ذلك أريد من العالم أجمع أن يعرف انك زوجتي... لي وحدي.»

فقالت: «نعم، لك وحدك.» وابتسمت، وهي تسمع هاتفاً يذكرها بأنها كانت تشعر مسبقاً أنه مازال يريدها زوجة له. وكانت تريد ان تعرف كل التفاصيل الصغيرة غير المهمة، مثلاً، أين سيسكنان، وما إذا كان غناؤها يدخل في الجزء الذي يريد تغييره منها.

ولكنها تدرك الآن ان الشيء الوحيد الذي يهمها هو حبهما المشترك. إنها لا تعرف سوى القليل عن حبيبها. ولكنها عرفت، في النهاية، أنه يحبها وأنها تثق به وبأنه سيحافظ عليها وسيحبها إلى درجة تجعله لا يطلب منها أن تتحول إلى انسان آخر لا تستطيع هي أن تكونه.

تمـــت